

رواية

حكايا رحمي فؤاد

عامر مريري



جميع الحقوق محفوظة للكاتب : عامر حريري

الحقوق الفكرية للمؤلف محفوظة

جميع الحقوق محفوظة . لا يجوز استخدام أو إعادة
طباعة أي جزء من هذا الكتاب بأي طريقة من دون
الحصول على الموافقة الخطية من الكاتب .

الإهداء

إلى الدكتور أحمد خالد توفيق .. صديق العمر
ورفيق سنوات حياتي الذي لم ألقاه قط ...

ستظل في قلبي دائماً .

رحمك الله .

أريد أن أشكر الصديق العزيز ياسر بارودي
على آراءه البناءة والمفيدة جداً وأشكر
الصديق العزيز مثنى الحيّو على حكاياته
المسلّية.. لقد كانت ملهمة حقاً

هذه أول رواية لي ..

لا أستطيع أن أصف لك يا صديق الورق ذلك الشعور
عندما تنتقل من طرف القراءة التي قضيت به جلّ
حياتك إلى أن تكون في طرف الكتابة ..

أن تشعر بتلك اللذة الخفية بأن إسمك بات مكتوباً
على غلاف أحد الكتب .. الكتب التي كانت رفيقة
دربك دائماً.

هذه أول رواية لي وأقصى ما أتمناه أن تنهيها وينتابك
بعدها شعور ما بالرضا .

مع كامل المودة

عامر

حكايا رحمي فؤاد

ذلك الظلام الأبنوسي الجميل، الذي يذكرك بتلك
الأشهر التي قضيتها في رحم والدتك، حيث الدفء
والهدوء والطعام الذي لا ينفذ ... الظلام الذي خرجت
منه مرغماً ... والذي تعود إليه أحياناً عندما تطفئ
الأنوار وتغرق في سرايله الرحيمة على أعصابك، كما
أنا في هذه اللحظات.

من أمام النافذة أتأمل الموجودات البعيدة في هدوء
... سواء تلك الموجودة أمام شبكية عيني أم تلك
التي وراءها ... الذكريات التي تراصت بحيث لا تكاد
ترى لها نهاية بطريقة غطت أي إمكانية لرؤية البداية
... ولكن أي بداية تريد؟؟ ... وهل تدري أين تلك
البداية!!؟

اسمي هو رحمي فؤاد ... هل شعرت أنه مفتعل؟؟
هو كذلك فعلاً ... أنا شخصية قصصية ومن أبسط

حقوقي أن يكون لي اسم جذاب لافت للنظر ... هناك من حاول أن يعطي لشخصياته اسماً اعتيادياً وأحياناً اسماً من دون كنية، ولكن بقليل من الجهد نجحت تلك الشخصية بجعل اسمها الاعتيادي هذا مميزاً هو الآخر.

في وقت سابق كنت مجرد فكرة هائمة في عقل الكاتب ... فكرة تسبح بلا هدى جنباً الى جنب مع أفكار أخرى، كحيوان منوي شارد ... رأيت أفكاراً كثيرة حولي تولد وتجمع ومن ثم تخفت وتموت ... بالنسبة لي هناك شيء ما حدث غيّر أموراً كثيرة... كنت فكرة بدائية وحيدة الخلية ومن ثم بدأت أكبر وأكبر ... أصبح لي اسم وذكريات، وتبدل المشهد الغامض ذو الوميض الذي ألفتة إلى مكان للسكن، وأشياء كثيرة من حولي أصبحت فجأة أعرفها كأنها كانت موجودة

حولي منذ البداية ... وأي بداية!! وكأن هناك من
وهبني تلك الومضات المتراكمة الصغيرة التي
أصبحت تكون ماهيتي الجديدة.

وأتاني الجواب من دون سابق إنذار ... أنت فكرة
مبهمة شاردة في عقل الكاتب، أثارت انتباهه ودفعته
ليعطيك صفات وتفاصيل من خبرات ومشاهد كثيرة
مختزنة في عقله ... صفات وتفاصيل حولتك إلى
شخصية قصصية ... وأوجدت لك محيط مشابه
لذلك الذي يعيش به البشر ... بالنسبة لي بدت كلمة
بشر عجيبة حقاً.

ولكنني لم ألتفت كثيراً لكل ذلك؛ لأن هذا الوضع
الجديد قد أعجبني بصراحة، وجعلني أشعر
بالانتعاش وبدأت أتأمل المكان الجديد القديم من
حولي ... تلك الغرفة الصغيرة المليئة بأشياء شتى ...

المشهد الليلي خارج النافذة والإضاءة المريحة
الخافتة... بالنسبة لي كل ذلك بدا جميلاً لدرجة
مفزعة.

وبعيداً عن كل ذلك أستطيع أن أقول ... أنا راحي
فؤاد، شخصية قصصية معجبة بمكنونها، ومستعدة
بشغف شديد لأن تفعل ما تمليه عليها الأحداث
القادمة ولا شك وأن تخوض أياماً بعيدة عن الملل
... هكذا أرجو على الأقل!؟

أقيم في بلد أوروبي ما ... تلك البلدان تتشابه ولا
تستطيع تمييزها بسهولة خاصة إن كنت لا تقيم
بواحد منها ... نفس الأنماط الاجتماعية عدا بعض
التفاصيل الصغيرة هنا وهناك ... لا أجد من المهم
معرفة أين أقيم، ولهذا ... صدقني ... سحره
الخاص...

تصوّر أن تعبر آبي رود، وتدخل متحف اللوفر مباشرة،
وتشاهد من خلال نافذة ما هناك أحد قلاع ألمانيا
العتيقة تقبع في مكان غير بعيد ... هذا مثير للخيال
ويناسبني بشدة ... تعلم أن الانتقال بين الأماكن
ليست بمشكلة عند الشخصيات القصصية.

أحبّ الخصوصية التي توفرها لي الحياة هنا ... الأمان
والعزلة ومجتمع يرحّب بك ما دمت تترك الآخرين
وشأنهم ... قد لا يتركوك وشأنك أحياناً لكونك غريب
عنهم، ولكن هذا لا يحدث إلا نادراً ولبعض الناس ...
جرب أن تعيش من دون ضوضاء، وستكون غالباً
بخير.

أحياناً أتخيل تلك البلدان العربية التي تقبع في
الطرف الآخر ... وأرى أموراً رهيبة حقاً ... لا أدري إن
كانت هذه إحدى الومضات التي تشكل شخصيتي،

أم هي بعض ذكريات الكاتب نفسه ... هذه أماكن لا
تصلح للعيش حقاً حتى للشخصيات القصصية
مثلي.

في مبنى ضخم يحتوي على عشرات الشقق الصغيرة
أقيم ... أشبه ما يكون بفندق بنزلاء شبه دائمين ...
مجموعة من الممرات الطويلة المضاءة بأنوار خفيفة،
والتي من الممكن أن تضيع خلالها لولا الأرقام المثبتة
على الأبواب.

ومع الحديقة الهادئة المليئة بالأشجار التي تقبع
حوله، يمكن القول أنه مكان صالح جداً للاستقرار،
لذلك أحاول دائماً عدم افتعال أي مشكلة أرى
نفسي بعدها مطروداً من هنا ... سيكون من الصعب
جداً إيجاد مكان مشابه.

أكثر ما أحبه في شقتي الصغيرة هو نافذتها الوحيدة
المطلّة على الحديقة، وعلى شارع تراه من بعيد،
والسيارات تسير خلاله بانسيابية مريحة للعين ...
أقضي أوقاتاً عديدة كل يوم وأنا أتأمل المشاهد
القريبة والبعيدة ... المشاهد التي تتبدل مع تبدل
أوقات النهار وفصول السنة.

هذا التأمل الذي اعتبره إحدى أقرب الهوايات المحببة
لي ... شعور خاص مفعم بالأشجان يملأ قلبي
وخاصة في أوقات الغروب ... تشعر وأنت تراقب هذا
الكون الصغير بلحن غامض تعبق به نفسك ... لحن
مرهف يأتي من لا مكان ويتردد صداه مع تبدلات
المشهد.

تحتل المكتبة في شقتي زاوية رئيسية ... مكتبة
مزرّكة مزدحمة تحتوي مختلف أنواع الكتب ... هنا

توجد كل الكتب التي قرأها الكاتب ونسي أنه قرأها
... العناوين المهيبة أحياناً والغامضة أحياناً التي
تدعوك للفضول والتساؤل.

عناوين تدفعك دفعاً لإمساك الكتاب وقراءة بضع
صفحات منه في شغف ... وعناوين أخرى تحذرك
بصرامة من أنك تحتاج لكثير من الصبر أثناء التعامل
معه ... تلك التي قد تغير قناعاتك وطرقك في
التفكير إلى الأبد.

وجود المكتبة يعطي الشقة نوعاً من الأناقة التي
تفتقدها شقق أخرى دخلتها في ظروف مختلفة ...
المكتبة تعطي لمسة إنسانية تعبر عن أن المكان
ليس استهلاكياً للنوم والأكل فقط.

المكتبة هي تاريخ القارئ الشخصي ومستودع
ذكرياته الأمين... كل كتاب هو شاهد على ذكرى
معينة ... على ليلة صيفية هادئة من ليالي الشباب
الأولى ... على أحاديث شتّى مع أعزاء كان محتوى
كتاب ما موضوعها ... على مشوار العودة للبيت
وكتاب في الأحضان مع أمنيات بقضاء ساعات لا
تنسى بين أحضانه.

وهكذا شكلت المكتبة مع النافذة وتأملاتها المحيط
الرئيسي لهواياتي التي أمارسها داخل شقتي
الصغيرة في تلك البقعة الغربية من العالم.

لك أن تتخيل مقدار التنوع البشري في المبنى
الضخم الذي يضم شقتي الصغيرة ... أناس من
مختلف الأجناس والألوان ... تشعر كأنك في الأمم
المتحدة وليس في سكن ... لا أعرف إن كانوا بشراً

حقيقيين أم هم مثلي ... لا أعرف أساساً الفرق بين
البشري الحقيقي من غيره.

هم يتصرفون كالبشر أو هكذا أعتقد ... ولكن ليس
هذا دليل قوي على أنهم كذلك ... لأن العديد منهم
يتظاهرون بأنهم بشر، ولكن إن صادف وحاورتهم، أو
تعاملت معهم، ستكتشف عند بعضهم نوازع
وتصرفات وأفكاراً تملأ عمودك الفقري بالقشعريرة؛
لذلك أصبح لا مفر من الخلط.

منهم من أصبح صديقاً لي في ظروف مختلف
مضحكة ومحزنة... واكتسبت أيضاً عداوات في أوقات
أخرى ... أحياناً تكون العداوات أمراً لا مفر منه، ولا
تستطيع التنصل منها ... وقد تكون شيئاً مرغوباً به،
لو أجبرت على الاختيار بينها وبين المساس بكرامتك.

وعلى مر الزمن، شكّل هذا المكان الضخم الذي أقيم داخله مجتمعاً كاملاً شبه معزول عن محيطه وكأنه جمهورية مستقلة... بحديقته وبممراته الطويلة التي لا تنتهي، وإضاءته المسائية الخفيفة، وموظفيه القلائل الصامتين الملولين غالباً ... متحف كامل لمختلف الأطوار البشرية يستحق أن تفتح أبوابه للجمهور.

حدثت لي هنا أشياء وأشياء ... أوقات عصيبة وأخرى مرحة علمتني الكثير ... ساعات خطر، شعرت في أوقات معينة أنني لن أخرج منها على قيد الحياة ... أيام أخرى، تمنيت أن تدوم للأبد، ولكن كعادتها لم تدم، وبقيّة الأمنيات مجرد أمنيات.

لدي الكثير مما سأقوله هنا ... ما أريده منكم هو بعض من الصبر، وستتجمع تفاصيل الحكاية أمامكم

ببطء ... ما هي الحكاية بالضبط؟! ... ستعرفون كل شيء في وقته.

ككل الروايات والأفلام، وحتى في الحياة الواقعية، لا مفر من وجود شخصيات أساسية من حولك ... تلك الشخصيات التي تتمتع بهالة نفسية مشعة، تؤهلها للعب دور البطولة في حياتك... وهي لا تستطيع فرض نفسها عليك، إلا نادراً، لذلك في العموم، أنت من تعطيها أدوار البطولة تلك...

وأدوار البطولة لا تعطى لأيّ كان ... لا بد من أسباب وجيهة لذلك ... قد تكون صفات ما لفتت انتباهك ... قد تكون صحبته التي تخلق ساعات متعة لا مثيل لها ... نصائحه التي تعكس حرصاً واضحاً عليك ... اهتمامه بك ... الضحكات والنظرات التي تحيل الرمادي إلى بهاء مفعم بالألوان.

تلك التفاصيل الصغيرة الدافئة، التي تجعل للحياة طعماً، وتهبها انفجاراً عظيماً آخر. تجعل صدرك واسعاً جداً بما لا يقاس، فتبدوا من بعده متاعب الحياة وهمومها أشياء قابلة للاحتمال ... كأنك تغمر رأسك في الماء بثقة من يعلم أن الهواء المنعش بانتظاره في النهاية.

ورغم محبتي للعزلة، وتمضية ساعات الفراغ في القراءة والتأمل، فإن صحبة الناس من حولي هي من تعطي لتلك العزلة معنى ... تصور أنك تعيش في أرض لا تحوي سواك ... ما معنى كلمة عزلة؟! وما هو المغزى من اختراعها!؟

ومن تلك الشخصيات الأساسية، طارق ... طارق، هو شاب ثلاثينيّ يعيش وحده مثلي ... مهذب ومتقلب بشدة ... تارة هو صموت يحب العزلة والاختفاء داخل

شقيقته، وبعدها ينقلب فجأة لكائن يحب الزحام والضجيج ورائحة السجائر ... في البداية، وجدت التعامل معه مربكاً جداً، وبعد فترة اعتدت على مزاجه المتقلب ... بلحيته التي تملأ بكثافة ما حول فمه، ورأسه الضخم، وجسمه المائل للبدانة، أفكر أحياناً أنه شخصية هاربة من فيلم تاريخي ما، وأتوقع أن أراه في وقت ما يلوح بسيفه صارخاً بإحدى صيحات الحرب في الممر ... ستكون تجربة فريدة، وستجلب المصائب فوق رؤوسنا جميعاً.

الآن، جاء دور العم صلاح ... العم صلاح مدرس مصري، يعمل هو وزوجته في مدرسة تابعة للجالية العربية هنا ... خمسيني مازال يعيش في ستينيات القرن الماضي ... لو مررت من أمام شقيقته؛ ستسمع صوت أحد المغنيين القدامى، ينساب بهدوء في أرجاء

المكان، وكأنه مقهى من تلك المقاهي التي كانت تجلس بها (شلة الحرافيش).

السهرات التي نقضيها في شقته لا تنسى ... بصوته الشجي، وعزفه الرائع على العود. يستطيع العم صلاح أن يأخذك بعيداً الى أزمنة لم تعيشها، وإلى أماكن لم تزرها، ولكنه يجعلها تنغرس داخلك، وتعطيك شعوراً خاصاً جداً من الشجن، وكأنك وصلت الى الحفل بعد أن انتهى ولم يبق منه سوى الزينة المتناثرة هنا وهناك مع أصدقاء الضحكات والأمانى والسعادة التي كانت تملأ المكان، وبقيّة معلقة في الهواء، شاهدة على الذي مضى والذي كان ...

عادة، تتوزع الشقق في المبنى الضخم الذي يضم شقتي على يمين ويسار الممر. ولكن هناك شقة

معينة تقع في منتصف الحائط تماماً آخر الممر،
بطريقة تذكرك بالغرفة الأخيرة التي يقبع بها زعيم
العصابة، وينتظر أحمد زكي أو جاكى شان ليوزعوا
الركلات بسخاء على أفراد عصابته.

هذه هي شقة بهاء ... بهاء، هو كاتب مغمور، لم يترك
نوعاً من أنواع الأدب لم يكتب به، ولم ينجح بأيّ منها
... كتاباته لا بأس بها، ولكن تشعر أنه ينقصها نوعاً ما
من توابل الأدب؛ ولهذا لم يجد قُرّاء كثر لما يكتب ...
والذي زاد الطين بلة؛ أنه تحمس مرة ومدح السلطة
في بلده، وسرعان ما طارت السلطة، وطار هو الآخر
هرباً من السلطة الجديدة، بعد أن صار محسوباً على
النظام القديم، من دون أن يقطع أي ثمار من جراء
ذلك ... هذا نوع خاص جداً من النحس، شبيه بأن
تشتري عربة بثمان مغرٍ، يتبين لك بعدها أن

صندوقها يحتوي جثة تنتظر البائس الذي سيشنق
من أجلها.

أحبّ الجلوس معه وتبادل الأحاديث كلما أمكن ...
عثة كتب حقيقي، يعطيك ملخصات سريعة لما
يحدث في الدنيا، ولديه رصيد لا ينتهي من الحكايات
والتاريخ المنسي ... يكسب رزقه من كتابة مقالات
اسبوعية لبعض الصحف.

الآن، جاء دور الحديث عن ليلي ... عندما سمعت
اسمها القديم أول مرة، تخيلت أني سأرى امرأة في
نهاية الأربعين من العمر على أقل تقدير ... ولكن تبين
لي أن ليلي هي فتاة في آخر العشرينات ... سمراء،
تربط شعرها على هيئة ذيل فرس، وذات عيني
سوداوين واسعتين ... لها جاذبية تخطف العين،
وهذا شيء غير مرغوب به لفتاة تعيش وحدها ... هذا

يجعلها فريسة سهلة للذئاب التي تراها هنا في كل زاوية، ولكن ليلى أثبتت العكس تماماً لكل من حسبها كذلك ... أثبتته بطريقة عملية جداً، وبمناسبات مختلفة تكشف عن قوة نفسية لا تتناسب مع ملامح الأنوثة الواضحة منها ...

أصادفها أحياناً في المصعد، تقف بكبرياء بثيابها المحتشمة التي تدل على ذوق واضح ... فتاة باسم وثياب وتسريحة شعر قديمين، تخرج بهدوء من المصعد، وتتجه خارج المبنى إلى عملها كبائعة في أحد محلات الأزياء النسائية المشهورة هنا..

لماذا هي شخصية أساسية بالنسبة لي؟؟ هذا سؤال خبيث حقاً ... قد يكون نوعاً من الإعجاب أو قد يكون حباً ... لا أعرف بالضبط ... تبقى هذه مصطلحات لا تهم كثيراً ... ما يهم أنها ليست مجرد فتاة تسكن في

المبنى ... بل كانت بالنسبة لي ... هي التي تبعث فيّ
مشاعر لم أختبرها مع أي فتاة أخرى من قبل...
شعوري نحوها شبيه بقدر مغطى تنبعث منه رائحة
زكية من دون أن تعرف ما بداخله ... أو دمدقات أغنية
جميلة لا تستطيع أن تتبين تفاصيلها بدقة.

وأنا لم أحاول أن أكشف غطاء القدر لأعرف ما فيه،
ولم أحاول معرفة تلك الأغنية الجميلة ... المعرفة لها
ثمناها، ومن الممكن أن تخسر بعدها ذلك الشعور
الذي لا يوصف ... لذلك رضيت بالصمت وبما هو
متاح من شباك النور.

هذه بعض الشخصيات الرئيسية في حياتي اليومية،
مثلاً يعرف كتاب المسرحيات بشخصياتهم في
بدايات مسرحياتهم ... معلومات قليلة ستزداد
وضوحاً مع سير الأحداث....

هناك غيرها طبعاً، ولكنني لن أذكرها كلها منعاً للملل ... سأكون بذلك مثل المذيع زمان، عندما كان يذيع نتائج امتحانات الثانوية العامة ... تخيل أن تجلس وتستمع لأكوام الأسماء الثلاثية تلك مع درجاتهم ... هذا لن يهم سوى من يتوقع أن يذكر اسمه معهم.

وبالنسبة لمبنى ضخم يضم هذا العدد الكبير من البشر، هناك الكثير من الحكايات التي حدثت وتحدث به ... أينما وجدت الشخصيات القصصية مثلي توجد معها تلك الأحداث التي هي جديرة بأن تحكى ولا شك ... هذه وجهة نظر الكاتب على الأقل.

لذلك، أدعوك لتجربة هذه اللذة التي لا تقاوم، والتي عشقها الإنسان منذ بدايات وجوده ... الجلوس مع كوب شاي أو عود ذرة أو كأس من شراب ما، والإنصات إلى حكاية لم يسمعها من قبل ... تلك

التجارب التي لن يتاح له أن يخوضها قط، وتلك
الأبواب التي كانت ستبقى مقفلة عنه لولا يد الراوي
الخبيرة.

يد الراوي المترعة بالمفاتيح، والتي تعرف المفتاح
المناسب لكل باب ... بعدها سيملاً قلبه شعور
بالرضى، وبأنه بات يعلم أشياء جديدة حقاً وازداد من
خلالها حكمة ... هذه لذة من الصعب أن تقاوم.

ستبدأ خششة المفاتيح ولن تنتهي قريباً.

الوصول

في تلك الليلة، كنت أحاول إنهاء ذلك التصميم الذي بدأت به في الصباح ... على ضوء الشاشة المنعكس على موجودات الغرفة. أخذت التفاصيل تتشكل شيئاً فشيئاً ... أعتبر نفسي من أولئك المحظوظين الذين استطاعوا متابعة عملهم في بلاد الغربة ... ولم يضطروا للعمل بتلك الأعمال المجهدة التي أضاعت سنوات دراستهم وخبراتهم سدى ... أعطاني هذا قدراً لا بأس به من الأمان النفسي ... صحيح أن المكان تغير، ولكن لم يغير ذلك إيقاع حياتي إلا بقدر يسير ... العمل من وراء شاشة الحاسوب، وتأمل الدنيا من بعيد، والمشي الليلي، عادات تستطيع ممارستها في

أي مكان ... وهكذا كان ... أملت نفسي قليلاً إلى
الوراء، وأغمضت عيني، وبدأت الذكريات تصحى في
نشاط وشغف...

واقفاً أمام إحدى الأبواب الرئيسية للمطار، تأملت
بعمق المشهد من حولي ... الطريق العريض الغائص
من بعيد إلى ما لانهاية، والعربات التي تبدد الظلام
قليلاً بأنوارها الخاطفة التي تصيبك بعمى أبيض
مؤقت، وأصوات النداءات الإلكترونية الباردة تصدح
من بعيد ... ما الذي أتى بك الى هنا!!؟

لماذا أتيت الى هنا!!؟ لأنني فضلت التروي قليلاً قبل
أخذ سيارة الأجرة والمضي إلى ذلك العنوان ... هناك
خاطر خفي همس لي بأن مجرد خروجي من المطار
سيعني أن طريق العودة قد أغلق ... وكأنه لم يكن
مغلقاً دائماً من طرفيه!!! لذلك أخذت أحوم داخل

المطار، أتأمل المسافرين بعينين زجاجيتين إلى أن وصلت لهذا الباب الخلفي قليل الحركة ... وماذا تنتظر إذن!!؟ وقفت متردداً، أفكر بالعودة الى المخرج الرئيسي، وترك الأمور تمضي، عندها عاد نفس السؤال يتردد داخلي ... ما الذي أتى بك إلى هنا!!؟ ... يبدو أن المراوغة لم تفيدني بالهرب من الإجابة ... شعرت بالغىظ منه.

وأنا- طوال عمري- كنت أكره الأسئلة ذات الإجابات البديهية... وكأنه كان لدي خيار آخر!؟ أتيت؛ لأن الحياة تجمدت حيث كنت، ولم يعد هناك من خيارات لا تؤدي إلى الموت أو التوحش أو الجنون إلا باب الهروب الذي ...ولله الحمد ... مازال موارباً حتى ساعة إقلاع الطائرة، ولا أعلم إن كانوا أغلقوه الآن هو الآخر.

كطفل صغير ضائع بلا أمل، أخذت أنقل أنظاري بين
الشارع ذو العربات الخاطفة المسرعة، وبين السماء
المظلمة التي أتت بي ولفظتني هنا ... استدرت بعدها
بهدوء، وعدت أدراجي الى المخرج الرئيسي...

تناول سائق التاكسي ورقة العنوان، ونظر لها لثوان
ثم أعادها لي وانطلق من دون أي كلمة ... يبدو أنه
معتاد على نقل الغرباء لدرجة أن لم يبق هناك داع
للفضول ... بوجه جامد وبحنكة أخذ يتخطى العربات
القليلة من حوله ماضياً الى وجهته المؤقتة، ووجهتي
الدائمة والله أعلم.

وقفت أمام ذلك المبنى الضخم، بينما كانت العربة
تستدير لتكمل ليلتها ... لم أتخيله بذلك الحجم برغم

صوره التي شاهدها من قبل مراراً ... أبواب الدخول المتشابهة التي انتشرت بشكل متباعد في الطرف الآخر من الحديقة، بحيث جعلت التفرقة بينها مستحيلاً وخصوصاً في هذا الوقت من الليل.

اتجهت إلى غرفة الحراسة، وأريت الحارس الوحيد هناك ورقة التوصية ... فتشني بسرعة ودقة ثم أشار إلى أحد الأبواب ... اتجهت إلى هناك، وأنا أحاول تأمل تفاصيل الحديقة التي غرقت في الظلام ... في داخل المبنى مقابل الباب الرئيسي، وقفت أمام موظف الاستقبال الذي أخذ يحدجني بنظرات باردة ... أريته بسرعة ورقة التوصية...

تأملها لبضع دقائق ثم أخذ يتفحصني من رأسي لأخمص قدمي وبعدها نهض وقال:

- أنت محظوظ!!... اتبعني.

بعد أن خرجنا من المصعد، أخذنا نسير في ممر طويل ... تأخرت عنه بضع خطوات وأخذت أتأمله ... قصة الشعر وتلك النظرة الصارمة، توحيان بخلفية عسكرية واضحة ... بدا كأن الممر لن ينتهي أبداً بتلك الأبواب المتراسة يمنة ويسرة، والتي تنبعث منها أصوات أحاديث خافتة تارة وتارة أصوات موسيقا أو صمت مطبق من بعضها ... توقف فجأة عند أحد الأبواب وفتحها بالماستر كي وولجنا للداخل ... كانت شقة صغيرة مكونة من غرفتين ومطبخ ملحق بأحدها... نظرت من إحدى النوافذ ... كانت مطلة على الحديقة وعلى شارع من بعيد، عدا ذلك كانت الشقة فارغة تماماً ... سألني فجأة: هل أعجبتك؟

نظرت له، وأنا أكتّم نظرة ساخرة من أسلوب
المداهمة في الكلام هذا، وقلت له: لا بأس بها أبداً ...
ولكنها خالية، حسبت أنها مفروشة كما قيل لي ... نظر
إليّ وقال بهدوء: هذه ليست مشكلة... تعال معي
لترى ما يناسبك.

تبعته متسائلاً ... هل لديه وقت لتجارة الأثاث
المستعمل؟! وسرعان ما كنا داخل مخزن كبير ممتلئاً
بقطع الأثاث ... قال لي:

هذه المفروشات قام أصحابها ببيعها لإدارة المبنى
قبل رحيلهم... ونحن نبيعها للسكان الجدد ... جميعها
مستعملة عدا الفراش ... سننقل لك السرير مبدئياً
حتى لا نصدر ضجيجاً في هذا الوقت من الليل ...
وسنكمل الباقي غداً ... انتقيت السرير وطاولة مكتب
وأريكة كبيرة ... كنت أبحث عن قطعة معينة قدّرت

أنتي لن أرها هنا ... ولكن صبراً!! ... ها هي في نهاية
المخزن ... مكتبة من الخشب البني الداكن تقف في
إحدى الأركان ... أستطيع أن أقول أنتي تخلصت من
عناء البحث عنها خارج المبنى ... صبراً يا صغیرتي،
ستمتلئين بالكتب عما قريب وتعود لك أمجادك.

وسرعان ما كنت مستلقياً على الفراش وأنا أشعر
بالرضا ... سيكون عليّ التأقلم مع حياتي الجديدة
بصبر وهدوء ... ترى من أين أتى سكان هذا المبنى
وكيف هي حياتهم هنا؟ ... هل هناك منهم من
أستطيع أن أكتسب صداقته؟

أسئلة كثيرة جالت في ذهني ... أسئلة من النوع
المخدر، تجعلك تغط في نوم عميق.

هززت رأسي طارداً تلك الذكريات المشاغبة من
ذهني ... سيعني الشرود الآن ساعات عمل إضافية
أخرى ... تأملت تفاصيل الشقة في رضا وعدت
للعمل.

البحث عن ثاني أوكسيد الكربون

قضيت الأيام الأولى من إقامتي في المبنى بعزلة شبه
كاملة عمن حولي ... ولم أخرج إلا نادراً؛ لكي أشتري
بعض الأطعمة من متجر قريب ... كنت أحاول بهدوء
تقبل الحياة الجديدة التي بالكاد بدأتها ... وكما هي
العادة في ظروف مشابهة، أخذت أشعر بفراغ رهيب
وبجهلي الكامل من أين أبدأ!!!؟

في المساء أتأمل الملامح الليلية التي تكوّن الأشياء
من وراء النافذة ... الطريق الظاهر من بعيد والعربات
العائمة خلاله جيئة وذهاباً بإيقاع مريح للنفس ...
أعطاني هذا المشهد جرعات لا بأس بها من الهدوء

والسلام النفسي ... لو كانت إطلالة بلهاء على منور أو
مشهد بائس لكنت هذه وصفة جنون فعالة.

بنظرة جانبية، أتأمل المكتبة الخاوية القابعة في ركن
رئيسي في الغرفة ... لن أعدم وجود مكتبة عربية في
مكان ما في هذه المدينة ... وإن لم يوجد سيكون
الشراء عن بعد والشحن هو الحل ... سيملاً هذا جزءاً
لا بأس به من وقتي خارج العمل ... ستأتي شاشة
الحاسوب الكبيرة خلال أيام قليلة وسأبدأ العمل جدياً
وقتها ... أما بالنسبة لهذه العزلة التي أخوضها فلن
تنتهي إلا بعد إيجاد بعض الزحام ... عادة لست كائن
اجتماعياً بالمعنى المفهوم، وخاصة أن عملي
كمصمم يعزز نزعة الابتعاد عن البشر، وهواياتي
اليومية من قراءة، و تأمل، ومشى ليلي، لا تساعد في
جعل الوضع أفضل ... ولكن أنت بحاجة إلى حاجر

يفصل بين إيقاعات الصمت والوحدة ... أنت بحاجة إلى صحبة لكي تحس بطعم الفرق بين الزحام والعزلة ... وإلا ستصبح حياتك مثل ذلك الخط المتصل على شاشة نبضات القلب... خط الموت.

ولأنني شخصية قصصية، افترضت أن قاعدة ما من قواعد اكتساب الصداقات في الحكايات ستطبق افتراضياً هنا ... عادة تبدأ القصة والبطل يمتلك عدد من الأقارب والأصدقاء ... أحياناً، يمتلك البطل صداقة طويلة الأمد، قد تمتد للطفولة مع أحد الشخصيات ... تراه يحوم حول البطل طوال الوقت يدعمه نفسياً ويساعده في ساعات الخطر ... أو قد يكون هو الخطر ذاته ... أحياناً أخرى تأتي الصداقة مع الصفحات الأولى للحكاية، عن طريق صدفة ما أو زمالة قطار أو بتجربة خاطفة مشتركة ... وتتطور العلاقة سريعاً لتغدوا

صداقة قوية لغاية في نفس الكاتب ... يجب أن تكون
هناك صداقة أو علاقة ما شبيهة لتتحرك الأحداث.

فأين هي تلك الصداقة!!؟ يبدو أن الكاتب سيجعلني
أرتجل وغالباً هو نفسه لم يصل لفكرة ما بهذا
الخصوص، وعليّ أن أعتمد على نفسي ... ما علينا ...
أخذت أذرع الغرفة جيئة وزهاباً في ملل، ثم خطر لي
أن أخرج وأتمشى في ممرات المبنى، لعل شيئاً ما
يحدث وأخرج من دائرة من أين أبدأ؟

أخذت أمشي في ممر طابقي بهدوء وبطء ... الأبواب
المتشابهة تلك، والممر الطويل جداً، والشبابيك
المتناثرة هنا وهناك ... الأصوات المختلفة المتجددة
التي تسمعها كل بضعة أمتار بلغات ونبرات مختلفة
... رائحة طبخ أشعرتني بالغثيان ... سيحتاج

المساكين في الداخل الى شجاعة حقيقية لتناول تلك الوجبة.

أنظر من خلال إحدى النوافذ الى الشمس الراحلة من بعيد ... الظلام الآتي بعد قليل بنسماته الباردة في ذلك الوقت من السنة... سمعت صوتاً مفاجئاً فالتفت بسرعة، ورأيت كهلاً ينظر لي بكراهية وهو يغلق الباب بقوة وغلّ ... شعرت أنه يغلق الباب على وجهي تماماً ... وماذا كنت تنتظر سوى ذلك!!؟

هل ستجد باباً مكتوباً عليه: التجمع الشعبي للأصدقاء الأوفياء، أم ستفاجئ بشخص ما يفتح ذراعيه بقوة قائلاً لك: أخيراً يا رحمي أنا أنتظر هذه اللحظة منذ زمن!!؟ فالنأمل من الله ألا يشتكي هذا الكهل اللعين للمشرف على المبنى من ذلك السائر في الممرات ... مشرف المبنى...!!

يا ترى هل يصلح؟؟ تخيلت نفسي جالساً بجانبه في
غرفة الادارة الزجاجة أسفل المبنى، ندخن النارجيلة،
ونروي نكات إنجليزية بذيئة ونضحك بصوت عالٍ ...
ضحكت لهذا خاطر وكنت قد وصلت لنهاية الممر
فقررت العودة الى الشقة ... من يدري لعله مع
تقديمه لخدمة بيع الأثاث المستعمل يملك ألبوم
صور لمحبي التعارف هنا.

كان لدى أُمي- رحمها الله- ألبوم يحوي صوراً لعدد
كبير من الفتيات ... كانت تريه لكل من ترغب
بعروس لابنها ... ويبدأ فرز بعض الصور بعدها جانباً
... مرة أمسكتني وأنا أتصفح ألبوم الصور في افتتاح
... كان عمري وقتها لا يتجاوز العاشرة، وأخذت
الجارات يضحكن من مشهد ذلك المبصص
الصغير، وقالت إحداهن لأُمي:

- يريد انتقاء عروس له من دون رأيك يا حماية
يا مرّة.

يومها وبختني أمي، ووجها يخلط الجد بالهزل
وابتعدت راكضاً بخجل إلى غرفتي ... كانت دائماً
تقول لأبي أنها تأمل الثواب من هذا النشاط
الاجتماعي، ويجيبها أبي بأنها غالباً لن تنال سوى
لعنات ودعاء من كانت السبب بزيجتهم.

يقولون: أنّ باب النجار مخلّع ... كبرت وأصبحت قرب
نهاية الثلاثينيات ولم أتزوج بعد ... ماتت أمي -رحمها
الله- وضاع الألبوم في مكان ما ... ما نفعه أساساً من
دون صاحبه.

ولأن الذكريات تستحي أن تأتي بمفردها فتصطحب
معهما الحزن والأشجان وتسري خلال قلبك بخطوات

ثقيلة كيلة ... جلست أمام النافذة أتأمل الصمت
الصاحب من بعيد ... شعرت بعدها بتعب طارئ،
ومن ثم استلقيت وغرقت في نوم عميق.

في الصباح وصلت الشاشة والطابعة التي طلبتها منذ
أيام ... وضعتهم على المكتب وأوصلتهم بجهاز
الحاسوب ... ها هي مساحة عمل جادة بدأت تتشكل
... جلست أتأمل الشاشة في حبور، وفتحت برنامج
التصميم وبدأت أنهي بعض الطلبات... بعد فترة
شعرت بالتعب، فأملت الكرسي للوراء وأغمضت
عيني قليلاً.

هذه لحظات مواتية للشroud الذي تكتشف فجأة أنك
تمارسه من دون أن تدري ... عاد هاجس البحث عن
أصدقاء يحوم هنا وهناك ... المشكلة، لا أشعر أنني
بدأت حياتي هنا بشكل فعلي حتى الآن ... هذا أشبه

بأن تكون على كرسي الاحتياط في مباراة ما تنتظر أن
تتاح لك فرصة اللعب بلا طائل ... تخشى أن تنتهي
المباراة ويبدأ الاحتفال من دونك ... شعور الغربة هذا
الذي بدأ يتسلل إلى نفسي يشعري بالضيق حقاً ...
أعدت الكرسي الى الأمام وعدت الى العمل.

في أولى ساعات العصر خطر لي أن أجلس في حديقة
المبنى قليلاً ... سيكون ذلك فرصة مناسبة لتأمل
سكان المبنى والإحساس بالصحة الادمية ولو من
بعيد ... اخترت مكاناً في إحدى الزوايا وجلست أتأمل
حولي في صمت ... كان عدد الجالسين قليلاً، وكما
توقع، كانوا من جنسيات وأعمار مختلفة... هذا
متوقع وطبيعي، فليس المكان مخصصاً للسكان
الأصليين ولا هم في وارد مشاركتنا السكن ... تذكرت

الرجل العجوز الذي أغلق الباب بقوة ... ترى كيف
بدوت له لكي يفعل ما فعله!؟

على الطرف الآخر من الحديقة رأيت كهلاً يجلس هو
وشاب وهم منهما كان في الحديث ... هذه ملامح
عربية واضحة ويبدو أن هناك صحبة في الجوار فعلاً.
وقفت واتجهت إلى مكان جلوسهم ... عندما اقتربت
منهم ترددت قليلاً ... هل ستكون القصة بهذه
البساطة؟! التحية والجلوس بجانبهم والبدء بكلمات
التعارف ... شعرت ببعض الخجل، فتوقفت وجلست
بمقعد قريب منهم ... لم يبد عليهم أنهم لاحظوا
وجودي ... بدأ حديثهم يتسلل إلى مكان جلوسي
بخفوت...

كان الكهل يتكلم بلكنة مصرية واضحة، على حين
كانت لكنة الشاب سورية ... سمعت الكهل يقول:

كما اتفقنا، سأنتظرك عند الساعة التاسعة تماماً ... لا
تتأخر ولا تنس أن تدق الباب بالطريقة إياها ... ما
قمت به من ترتيبات سيمنع وقوع أي مشكلة.

رد عليه الشاب بهدوء:

- لن أنسى، وكما قلت: أرجو أن يكون هذا هو
الحل الجذري لتخلص منهم ومن إزعاجاتهم
المتكررة.

هز الكهل رأسه، ووقف بعدها وألقى التحية ثم عاد
لداخل المبنى، واتجه الشاب بعد دقائق قليلة إلى
باب الخروج ... جلست أفكر ساهماً بما سمعت ...
كلامهم غير مريح إطلاقاً وواضح أن شيئاً ما سيحدث

في مساء اليوم ... حل جذري، وتخلص، ومشاكل ...
هل ينوون فعل شر ما!؟

لو حدث شيئاً ما من هذا القبيل، سيكون هذا وبال
على كل عربي موجود في المبنى، وقد أجد نفسي على
أفضل احتمال مرمياً على قارعة الطريق ... وقتها لن
يكتفي ذلك العجوز وغيره بإغلاق الباب بقوة فقط...

ماذا سأفعل!؟

خطر لي أن أبلغ مشرف المبنى بما سمعت؛ لذلك
قمت واتجهت مسرعاً لغرفته ... ولكن ماذا لو تبين
أنهم أخذوا احتياطاتهم فعلاً ولم يجد المشرف أي
شيء يدعو للشك؟ ماذا لو كان هناك غيرهم ...
عندها سأقع في ورطة كبيرة مع أصحاب الحلول
الجذرية أولئك ... ماذا أفعل إذن!؟

اتجهت إلى مشرف المبنى، وأخذت أسأله بضعة أسئلة روتينية عن الشوارع المجاورة والمتاجر التي تحتويها.

سألته بعدها بشكل حاولت أن يكون عابراً:

- هناك كهل يرتدي بدلة زرقاء دخل المبنى منذ دقائق، هل تعرف أي شقة يسكن؟

نظر إلي المشرف، وقال بجمود:

هل تقصد المدرس المصري؟! يبدو أنك تبحث عن أصدقاء من جلدتك ... عموماً، هو يسكن في الطابق الثالث، الشقة الرابعة والأربعين.

ثم صمت وقال:

- أنصحك أن تنوع صداقاتك، ولا تنغلق على ثقافة واحدة ولو كانت ثقافتك...

رددت بهدوء:

- لا بأس بذلك في البداية على الأقل ... لن يتشجع أحد على التواصل مع عديم الأصدقاء مختلف الثقافة ... أليس كذلك؟

هز رأسه بابتسامة مجاملة ... هزرت رأسي بدوري محيياً له، ورجعت لشقتي ... سأراقب ما سيجري هذا المساء من بعيد وسأبلغ المشرف إذا رأيت ما يريب ... هكذا سأضمن أن يُضبطوا متلبسين ... دخلت الى الشقة، وفتحت باب الثلاجة وبدأت بإعداد بعض الطعام، وأنا أستمع ساهماً إلى نشرة الأخبار المحلية التي لم تزد الحياة بهجة.

عند الساعة الثامنة مساءً، أخذت أزرع المساحة الخالية من الغرفة يميناً ويساراً في توتر، وأنا لا أكف عن التفكير فيما سمعت ... هل من المنطق أن أفعل ما قررت فعله أم أنه ضرب من حماقة ... المشكلة أن كوني شخصية قصصية يدفعني دفعاً لفعل ذلك ... لعب دور البطل من دون تعقل بحيث ترى نفسك تندفع الى فخ أو إلى كارثة ما من دون أن تتوقف ... الخوف من المجهول والفضول يجعلان معدتي تأن ... لا حل سوى الذهاب وإلقاء نظرة على الأقل ... خيار عدم الذهاب سيتبعه ليلة سوداء، سأقضيها أتقلب في فراشي بجنون، وأنا أفكر بالخيارات المفتوحة للمجهول الذي حدث والاحتمال المرعب أن الأمور السيئة قد تطورت بتجاهلي لها، وأصبحت كارثة حتمية غير قابلة للحل، وعندها سأظل ألوم نفسي

على عدم التدخل لوقت طويل فضلاً عن الكوابيس
التي ستلاحقني وقتها بتوحش وإلحاح... ومع هذا
الصمت المتوتر الذي لا يقطعه إلا صوت خطواتي
المتلاحقة، أخذت الهواجس تتضخم من حولي لدرجة
لا تحتمل ... أخذت أبدد الوقت بارتداء ثياب الخروج
على مهل...

كانت الساعة قد تجاوزت الثامنة والنصف عندما
خرجت من الشقة وتوجهت الى الطابق الرابع.

كان الممر خالياً من أي عابر في تلك الساعة من اليوم
التي لا ترى فيها عادة أي عائد من العمل أو ساع
للخروج لأي تسلية أو مشوار ما ... ولكن هذا لا يعني
أنني لن أفاجئ بمشكك ما سيصدق بريية في هذا
الشاب الواقف من دون أي مبرر في هذا المكان الذي
يفترض أن يكون للعبور وليس للانتظار، لذلك

فضلت الوقوف في منتصف الدرج في زاوية أستطيع
من خلالها أن أقنع من يراني أنني أتحرك صعوداً أو
نزولاً لا أكثر ... ظلت واقفاً هكذا، وأنا أصغي لأي
حركة من حولي وقد أخذت دقائق قلبي تضرب أذنيّ
بقوة ... أخذت الدقائق تمر ببطء شديد... سمعت
فجأة صوت خطوات سريعة تأتي من أعلى الدرج...

نزلت بسرعة متظاهراً بالذهاب الى شقة ما ... نظرة
جانبية على انعكاسات شبابيك الممر أكدت لي أنه
الشاب إياه ... مررت بجانب الشقة رقم 44 من دون
أي التفاتة ... بعد ثوان سمعت دقائق متلاحقة بنمط
معين، ثم صوت باب يفتح ويغلق بسرعة... وقفت
في نهاية الممر والتفت الى الخلف...

لا شيء طبعاً، إلا الممر الخالي الصامت ... ماذا بعد
!!؟ سألت نفسي، وأنا أشعر بنوع معين من الحماسة

... ذلك النوع الذي يدفعك للتفكير في الخطط
الفاشلة الخالية من أي فائدة وتنفيذها بكل حماس
ثم الظهور بمظهر الأبله أمام نفسك ... مشيت ببطء
ووقفت أمام الشقة 44 وألصقت أذني بالباب محاولاً
استراق السمع ... لم أسمع سوى أصوات مبهمّة تأتي
من الداخل بإيقاعات معينة ... هل هم أتباع لديانة
سرية ما، وهذا أحد اجتماعاتهم؟! ... لم تبدُ هذه فكرة
منطقية، فضلاً عن أن لها طابعاً يصلح للغربيين أكثر
من القادمين من الطرف العربي ... يبقى هذا الاحتمال
وارداً، والحياة خارج المحيط الاجتماعي الافتراضي
تغير من تركيبة الناس ... عموماً لن أستطيع التأكد
من ...

في تلك اللحظة شعرت بيد ثقيلة توضع على كتفي
بعنف ... جفلت والتفت بسرعة فرأيت عينيّ مشرف
المبنى تحدّج بي ببرود وصرامة وهو يقول:

- اتبعني بهدوء ولا داعي لتحذيرك من أي تهور
... أنا مسلح وغازب بشدة.

أمسك بذراعي بقوة، ومشيت معه وأنا أشعر بفقدان
حيلة تام... هذه نتيجة اندفاعي الأحمق ... سأضطر
للبحث عن مسكن جديد وقد أبيت الليلة في مركز
الشرطة ... قد يكون هذا كافياً لترحيلي... أخذت الأفكار
السوداء تموج في داخلي، على حين اقتادني المشرف
إلى غرفته وأغلق الباب بقوة، ثم أجلسني بعنف على
أحد الأرائك وقال بغضب:

عندما اشتكى لي ذلك العجوز من ذلك المتلصص
الذي يحوم حول بيته، لم أصدق، وحسبت أنه مصاب
بجنون الارتياب ... ولكن ما شاهدته بنفسه يفسر كل
شيء ... حسبتك شاباً متزناً يحترم القانون، ولكن
صبراً ستتكفل الشرطة بكل شيء و...

صرخت بجزع:

- ليس الأمر كما تظن و...

قاطعني بقوة

- شخص يلصق أذنه بشقة لا تخصه ... لا مجال
للظن حتى.

وهكذا لم يعد هناك مفر من الكلام، وبكلمات سريعة
حكيت له ما جرى...

بعد أن انتهيت، حدق بي طويلاً وقال:

- اسمع ... لو تبين أنك تكذب علي لتتملص
من فعلتك فسيكون حسابك أسطوري حقاً.

قلت في جمود:

- هذا ما حدث، ولا أظن أنني عبقرى لدرجة أن
أخترع بوقت قياسي- ومع كل هذا التهديد
والوعيد- هذه القصة.

أشعل سيجارة، وأخذ يفكر بعمق وقال:

- لو بلغت الشرطة الآن سأواجه احتمال ألا
يوجد شيء غير قانوني في تلك الشقة،
وسأعرض للسخرية منهم، وهذا ما لن
أحتمله ... سأكتشف بنفسى ما يجري هناك
... لسوء الحظ مساعدى اليوم فى إجازة.

قلت له بحذر:

- هل تريدني أن أرافقك ... سأكون مفيداً وعلى الأقل لن تكون بمفردك...

رد عليّ بسرعة:

- بالتأكيد ... سأحتاج لشاهد، وخاصة أن كل شيء بدأ من عندك... ولكي أصب غضبي عليك لو تبين أنك أحمق، وأن من هناك أبرياء مما زعمته.

وسرعان ما كنا أمام الشقة 44 ... دق المشرف الباب بهدوء عدة مرات، ولم يجب أحد، ثم أخذ يدق بقوة عدة مرات متلاحقة وسمعنا صوتاً يتساءل عن الطارق بنبرة خائفة، فقال بحزم:

- أنا مشرف المبنى، افتح الباب لو سمحت.

ساد الصمت لبضع ثوان، ثم فتح الباب بهدوء وأطل
منه الكهل المصري وهو ينظر لنا بخوف.

تابع المشرف كلامه وهو يتحسس مسدسه بدلالة
معينة:

- هل تسمح لنا بالدخول؟

بصمت وتوتر أشار لنا الرجل للداخل ... دخل
المشرف وأخذ يتأمل المكان بسرعة وحذر، بعد أن
أشار للرجل بإبقاء الباب مفتوحاً، ولمحنا باب غرفة
الجلوس موارباً يكشف وراءه وجوهاً تنظر لبعضها
ولنا بقلق.

نظر المشرف لهم ثم لصاحب البيت، وقال بصرامة:

- ماذا يحدث هنا بالضبط!؟

خلال الدقائق القليلة التالية، كان المشهد في الشقة
44 على هذا النحو:

أنا أجلس مطرقاً برأسي وقد احمرت أذناي خجلاً، على
حين جلس المشرف بجانبني وهو يضحك، ويوجه لي
عبارات ساخرة، على حين أخذ صاحب البيت يهز
رأسه وملامحه لا يزال يشوبها نوع من الخضة التي
فرضها الموقف ... أما بقية الجالسين فقد أخذوا
يتبادلون الأحاديث بضحكات عصبية ... أخذ المشرف
يهدئ من روع الجالسين ثم التفت لي وعاد يقول
ساخراً:

- قلت لي تنظيمات وديانات سرية ومتآمرين!!
إن مكانك يا واسع الخيال ليس بيننا ... سوف
أجد لك مصحة عقلية تشفيك من جنون
الارتياب هذا.

قلت له محتجاً:

- ضع نفسك مكاني ... ماذا كنت ستفعل؟
وماذا ستستنتج؟ كلام غير واضح، ودقات
معينة، وخوف من اكتشاف أمرهم ... ماذا
كان سيوحى لك كل هذا!!!؟

قال صاحب البيت بهدوء:

- حقاً لا ألومك مع أنك بالغت قليلاً، ولكن لم
يخطر ببالي أن هناك من سيسمعنا ويفسر
كلامنا بهذا الشكل ... القصة بسيطة جداً ...
أعود وأقول : أنا رجل أهوى العزف والغناء
المنتمي لأيام زمان ... الواقع، أصدقائي
الجالسين من حولكم جميعهم كذلك ... لذلك
أسسنا صالوناً موسيقياً بغرض التسلية

والترويح عن النفس ... نجتمع ويعزف بعضنا
ويغني بعضنا ويستمتع الباقي ... المشكلة
التي واجهتنا، هي شكاوي الجيران من
أصوات العزف والغناء ... يبدو أن حضرة
المشرف نسي ما حدث.

هز المشرف رأسه وقال:

- لم أنس، ولكني لم أربط ما حدث منذ أشهر
بما حدث اليوم ... لم يكن هناك وقت للتفكير
والربط ... كنت أصعد مصادفة لهذا الطابق،
فرأيت السيد هنا يتلصص على شقتك ...
فأمسكت به، وحققت معه، فأخبرني بما قلته
لكم.

تابع صاحب البيت كلامه قائلاً:

- وقعت وقتها على تعهد بعدم تكرار هذه السهرات مرة أخرى ... اضطررنا بعدها لتغيير مكان الصالون إلى منزل أحد الأصدقاء، ولكن بُعد المكان ووقت انتهاء السهرة المتأخر، جعل من الصعب الاستمرار بهذا الحل ... خطر لي بعدها أن أضع عازلاً للصوت على جدران الشقة ... انتهيت من ذلك منذ أيام وجربت العزف ولم يسمع أحد في الخارج، واجتمعنا اليوم على أمل أننا انتهينا من هذه الإشكالية ... ولكني لم أكن أتصور أن يحدث ما حدث.

تحنحت بحرج قائلاً:

- أعتذر بشدة مرة أخرى ... صدقني كان غرضي منع حدوث أي أمر سيء لا أكثر ... ولم أكن

أتخيل حقيقة أن هناك تفسيراً منطقي لما
سمعته ... تفسير لم أتوقعه بصراحة.

ضحك صاحب البيت ضحكة خفيفة وقال:

- للأمانة أنا أعذرک ... لو كنت مكانك قد يخطر
لي ما خطر لك أيضاً ... ولكن الذي لن يخطر
ببالي هو هذا السيناريو البوليسي الذي قمت
به ... لو افترضنا أن ما توقعته كان صحيحاً
لكنت الآن في خطر حقيقي.

تنهدت وقلت بقنوط:

- كل هذا فقط لأنني قررت البحث عن بعض
ثاني أكسيد الكربون لا أكثر.

فقال صاحب البيت بسرعة:

- وقد وجدته فعلاً... إنه متوفر هنا بكثرة... أهلاً
وسهلاً بك في صالوننا متى أحببت... أليس
كذلك يا طارق.

هز الشاب السوري رأسه وقال ساخراً:

- أهلاً وسهلاً به في تنظيمنا السري لعبادة إله
الكمنجة عند قدماء المصريين.

ضحكنا جميعاً بصوت عال، ولوح صاحب البيت
بعوده قائلاً:

- ما رأيكم بمعزوفة تذهب عنا التوتر وتنسينا
ما جرى، علت أصوات الموافقة، وبدأ صاحب
البيت بالعزف والغناء.

عندما عدت للبيت كنت أشعر بالغيب... لقد فعلها
الكاتب وأوقعني في الفخ بعد أن تركني أسير وراء

افتراض خاطئ، كانت كل الملابس توحى به ... لكن
بكل الأحوال كانت نهاية هذه الليلة إيجابية وهذا ما
دفعني لتناسي كل ما جرى ... سأكون أكثر حذراً في
المرات القادمة أو هذا ما أرجوه.

الحفلة

تصاعدت أنغام الموسيقى وصراخ وصفير
المحتشدين لتملاً السكن وما حوله ... كان المساء قد
حل بأنسام منعشة شجعتني على الاتصال بطارق،
واقترحت عليه حضور الحفل، فوافق من دون تردد ...
كانت هناك صداقة ما قد بدأت بيني وبينه بعد
الإشكال الذي حصل سابقاً ... هذا مسبب غريب
للصداقة، وخاصة أنني كنت أنوي خراب بيتهم
وظننت بهم الظنون، ولكنهم تجاهلوا لحسن الحظ ما
جرى، وبدأ السلام وهزات الرأس من بعيد تبعتها
بعض الجلسات المسائية في حديقة السكن...
الصداقات بحاجة لوقت ولكثير من الصبر لكي توجد،

وللأسف، قد تنتهي بسرعة وبطرق غير متوقعة ...
والناس لا يفرقون غالباً بين الصداقة والمعرفة.

وهذا يوقعهم بسوء فهم وبإحباطات عديدة ... التسرع
والاختيار الخاطئ يفسدان كل شيء ... التقيت
بطارق أمام شقتي ونزلنا مباشرة لمكان الحفل ...
كان المكان ممتلئ بالناس ويبدو أن الطقس
شجعهم هم أيضاً على النزول ... أغلب المحتشدين
كانوا من الشباب بحكم نوع الموسيقى...

عادة، يقام احتفال كل شهر تقريباً في ساحة السكن
... ذلك النوع من الموسيقى الغربية الثقيلة الخالية
من التناغم والتي أستغرب كيف يندمجون فيها لحد
الانتشاء ... اختلاف الثقافات هذا ... أخذنا نقرب ببطء
من وسط الحفل ... التمايل وروائح العطور الممزوجة
بالعرق ... قلت لطارق بصوت أقرب للصياح:

- من يا ترى يمول مثل هذه الاحتفالات؟!... لا
أظن أنها إدارة السكن، فلم يهتمهم أحد بالكرم
من قبل.

ابتسم طارق وصاح بإذني:

- لا، ليست إدارة السكن ... هناك هيئات طلابية
ترعى مثل هذه النشاطات، وأغلب الساكنين
هنا طلاب جامعة ... هذه وسيلة لملء الوقت
والإلهاء ... في بلادنا يصدعون رؤوسنا بالمعركة
والمقاومة والتصدي، وهنا يملؤون رؤوسهم
بالموسيقا وأشياء أخرى...

صمتنا وأخذنا نتابع الغناء والرقص بسكون وأعين
صامتة ... تلفتُ حولي بفضول باحثاً عن زهور حائط
أخرى، ورأيتها ... كانت واقفة عند أحد أطراف الحفل،

تتابع الحفل من دون أدنى اندماج ... بدت مألوفة رغم
أني لم أرها من قبل...

للحظات، لم أعد أسمع الهدير الصاخب من حولي ...
استدارت بعدها وسارت بسرعة باتجاه مدخل
السكن وغابت داخله ... نظرت إلى طارق الذي كان
شاردًا، فلم يلحظ ما جرى وغرقت معه في الشرود أنا
الآخر.

انتهت الحفلة، ونزل المغني عن المنصة، وتسابق
الحاضرون عليه لالتقاط الصور معه...

وأخذ الحرس يمنعونهم بصرامة من الاقتراب أكثر،
على حين كبر الزحام حوله، وثارَت بعض الفتيات،
وبدؤوا بالبكاء والاحتجاج، فاضطر للتوقف معهم.
وأخذ فلاش الكاميرات يلمع بكثافة وسرعة، وأتت

عربة فارهة وتوقفت بجانبه وركبها بخفة وانطلقت
العربة وغابت في الظلام.

راقبتها وهي تبتعد، وسألت طارق بتعجب:

- هل يستحق الأمر كل هذا الاحتجاج والبكاء
!؟... إنه مجرد مغنٍّ وليس مخلص العالم ...
لو كان يوزع مالاً أو يشفي من الأمراض لبدا
الأمر مفهوماً ... كل هذا من أجل صورة أو
سلام سريع لا روح فيه!!

ضحك طارق وقال لي:

- هذا طيش الشباب أيها العجوز الهرم الذي
يبدو أنك لم تجربته، تصور أن تلهث وراء
شخص أياً كان بهذه الطريقة البائسة وفوق

ذلك هناك من يبعدك عنه بخشونة!! سخفاء
وفارغو عقول لا أكثر.

وتمتم بهدوء قائلاً:

- كانت لي تجربة بهذا الصدد ... السعي وراء
لقاء مشهور تحبه.

نظرت له بحرج وقلت:

- لم أقصدك طبعاً بحديثي وأنا...

قاطعني بسرعة:

- أعرف، أعرف... لا داعي لأي تبرير ... حرية
التعبير مكفولة عندي ما دمت لا تعتقد أنك
المحق ومن حولك كومة من الحمقى.

- لم أزعـم ذلك يوماً... ما رأيـك أن تأتي معي إلى
شقتي وتحكي لي عن تجربتك تلك.

ضيـق عينيه وهو ينظر لساعته، وقال:

- لا بأس، ولكن لوقت قليل ومع مشروب
ساخن.

- اتفقنا.

جلس طارق على الأريكة، وأخذ يتأمل المشهد من
وراء النافذة بصمت، على حين شرعت بإعداد الشاي
محاو­لاً عدم إحداث صوت عال احتراماً لصمته ...
التفت إليّ بعد برهة قائلاً:

- أنت محظوظ بهذه الإطالة ... الزاوية عندك
رائعة حقاً.

قلت له وأنا أصـب له الشاي بحذر:

- أقضي ساعات أحياناً متأملاً تفاصيل المشهد
... هذا مطهر نفسي لا آثار جانبية له ... بكل
الأحوال أنت مدعو في أي وقت للتأمل ... أنا
مضيف رائع بالعادة.

ابتسم وأخذ رشفة سريعة قائلاً:

- شكراً على لطفك ... العلاقات الاجتماعية هنا
محدودة حقاً ... الكل مشغول، وإن لم يكن
كذلك ستجده تافهاً لا يستحق ...

تسلّيتي الوحيدة كانت صالون الغناء فقط، صالون
عم صلاح ... وحتى هذا كان يأتي بأوقات متباعدة،
وتعرض لتعثرات عديدة..

قاطعته بلطف قائلاً بضحكة خفيفة:

- وكان آخرها شاب مرتاب، ظنّ أن الصالون
مجرد اجتماع لتنظيم سري خطير.

لوح طارق بيده، قائلاً:

- لا عليك، كان سوء تفاهم وانتهى ... ما الذي
كنا نتحدث عنه؟ آه قصتي مع ذلك الفنان.

لأبدأها بسرعة قبل أن يتأخر الوقت أكثر ... ورشف
رشفة طويلة من الشاي، وعاد لتأمل ما وراء النافذة
وبدأ يتكلم بتتابع وهدوء...

الحقيقة التي يعرفها كل شخص في الحي وربما في
المدينة كلها، أنني مغرم بفؤاد غانم.

بالنسبة لي، لم أوفر أي جهد لكي أثبت ذلك للجميع
بطريقة هي أقرب للإثبات العلمي ... صورته التي
تخفي الجدران في غرفتي... اسطواناته المتراكمة هنا

وهناك ... أصوات أغانيه التي تملأ فراغ الغرفة بحيث
لم يعد هناك مكان حتى للأوكسجين.

وعندما اكتشفت أن الأخبار العاجلة لا تحدث إلا في
وقت إذاعة حفلاته بالضبط، قررت أنه حان الوقت
لوضع التلفاز القديم مع مستقبل فضائي مستقل في
غرفتي ... وهذا جعل والدي يشعر بالريبة من ذلك
الرقيع الذي يريد ملء غرفته بالفجور، وبعد مراقبة
صارمة اكتشف أن الأمر لا يتعدى درجات الفجور
الطبيعية.

تنهد بعدها بارتياح وهو يشتم هذا الجيل المائع
المخنث، وعاد ليتابع في شغف الشتائم التي يتبادلها
المتحاورون ببرنامجه الأسبوعي الأثير إلى قلبه ...
كنت مغرم بفؤاد غانم، وكنت أتصرف كأني مراهق

مفتون بنجمه المفضل وبكامل طقوس هذا الافتتان
إلا شيئاً واحداً ... حضور إحدى حفلاته.

حاولت فعل ذلك دون جدوى ... المشكلة أن تذاكر
حفلاته غالية جداً على دخل أسرتنا وحالتها التي من
الممكن أن تقول بقليل من الكذب أنها مستورة ...
كنت أتخيل دائماً وجه أبي لو طلبت منه مثل هذا
الطلب ... وطبعاً من نافلة القول أنها كانت
سيناريوهات سوداء ... مرة، وسوست لي نفسي أنني
أبالغ وأن هناك أمل بأن يكون رده إيجابياً ... تشجعت
وفتحت معه الموضوع ... وفعلاً كانت النتائج مبهرة
... كسبت الرهان مع نفسي وتأكدت بأن مخيلتي
تعمل بكفاءة عالية.

حاولت أن أقنع نفسي بأن مشاهدة مقابلاته
ستجعلني قريباً منه الى حد ما، ولكنها قالت لي في

ثقة بأن محاولتي الضحك عليها حمقاء وفاشلة
تماماً.

بعد ذلك بأيام كنت أسير داخل الجامعة مع بعض
الأصدقاء عندما اقترب منا عماد، وهو يتسم
ابتسامة عريضة ... حيّانا ثم نفش ريشه، وهو يلوح
لنا بصورة، وهو يقول: خمنوا مع من كنت أجلس
البارحة؟ حاول أحدنا خطف الصورة منه، فابتعد بخفة
ثم بحركة استعراضية وضعها أمام أعيننا ... كان
يجلس هو وفؤاد غانم على أريكة في مكان ما، وهما
يحتضنان بعضهما... وعلى حين بدأ ضغط دمي
يرتفع، كان يقول بزهو: فؤاد غانم صديق لأبي منذ أيام
الصبا ومنذ فترة طويلة لم يزرنا... مشاغل المشاهير
كما تعلمون ... البارحة فاجأنا والدي بهذه الزيارة
اللطيفة ... حقاً كانت ساعات لا تنسى.

هنا لم أعد أستطيع التحمل ... ابتعدت بهدوء، وأنا
أشعر بدمعة لعينة تتسلل إلى طرف عيني ... عدت
إلى البيت ورأسي يكاد ينفجر ... دخلت إلى غرفتي
وبدأت بالسباب والصراخ ... دق باب الغرفة فصرخت
بصوت هادر: لا أريد التكلم مع أحد.

بعد دقائق كنت قد هدأت قليلاً وشعرت بالضيق من
الجلوس وحدي فخرجت وجلست في الصالة ... جاء
أخي الكبير وجلس بالقرب مني، ثم انهمك في
الضغط المتواصل على هاتفه ... كنت بحاجة لشخص
ما لأفضفض له ... ظللت أتأمله في غيظ فحدجني
ببرود ثم عاد ليتابع ما يقوم به.

سألني فجأة: ما المشكلة عندك؟ فحكيت له ما
حدث بسرعة ثم تنهدت وقلت: لو كان فؤاد غانم

مطرباً في أحد المقاهي أو المطاعم الشعبية، لذهبت
ل هناك والتقطت معه صورة وانتهى الأمر.

ابتسم بسخرية وقال:

- لو كان كذلك يا أبله لما اهتممت بالسلام عليه
أصلاً ... لو لم يكن مشهوراً، لما اشتراه أحد
بقشرة بصلة. فصرخت محتجاً: ولكنه موهوب
وصوته رائع و ... قاطعني قائلاً:
- مفهوم، مفهوم ... سمعت أنه يخرج لهباً من
فمه أيضاً ... هذا ليس موضوعنا ... أرى أن
مشكلتك حلها بسيط ... اطلب من عماد أن
يعرفك عليه وستلتقط وقتها صورة العمر
معه.

غمغمت بحنق:

- أنت لا تعرف عماد ... هذا شخص كرهه مغرور
... سيعتبر صورته مع فؤاد غانم تميزاً له، ولن
يرضى أن تكون هناك صورة أخرى غير
صورته.

- حاول على الأقل ... قد تنجح في إقناعه بطريقة
ما ... الافتراضات المسبقة تجعل منك إنسان
قابلاً للهزيمة بسهولة ... وإن لم يستجب
عندها تستطيع إغلاق قلبك على حبك
الكسير.

لم أعلق، وغرقت في تفكير وتساؤلات كثيرة، على حين
عاد هو لإكمال ضغطاته المتحمسة.

- ما أطلبه بضع دقائق لا أكثر وسأكون ممتن
لك.

نظر عماد لي وقال باحتجاج:

- ولكنه ليس صديقي بل صديق أبي ولا أعلم متى سيأتي مرة أخرى ... فؤاد غانم إنسان مشغول أصلاً.
- على الأقل لديك وسيلة للاتصال به ... لن يستغرق الأمر سوى التقاط صورة معه، وأعدك أنني لن أريها لأحد أبداً.

هز عماد رأسه في شمم قائلاً:

- هذه ليست مشكلة ... بكل الأحوال صورتي أنا هي الأولى وحتى لو أخبرت أصدقاءنا سأقول لهم أنني صاحب الفضل بذلك.

جميل تصالح هذا الوغد مع نفسه ... تجاهلت ما قاله متبعاً بأمانة المثل القائل: إن كان ليك حاجة مع الكلب ... (طبعاً، لن تصل الأمور لأقول له يا سيدي).

في النهاية، قال عماد:

- لن أعدك بشيء ... سأجرب وأرى.

ثم ابتعد.

تملكني- خلال الأيام التالية- شعور منعش ... أن
يحذوك الأمل بحدوث شيء ما يكسر روتين حياتك،
ويحقق لك أمنية كبيرة مع دقائق تقترب منها من
أيقوتك التي ستخرج من كونك تحتفظ بها في
وجدانك، لتستحيل إلى شيء ملموس تستطيع أن
تزعم عندما تقترب منه بأنك كنت بصحبة كائن أتى
من شغاف قلبك، ولم تعد السعادة مجرد إحساس
دافئ فقط، بل تجسدت وأشرقت وملأت الدنيا من
أجلك أنت.

وفي ذلك المساء، أخذ قلبي يدق بعنف عندما أتاني
صوت عماد على الهاتف.

- قابلني بعد نصف بالضبط من الآن، أمام مدخل
بيتي.

- هل...

قاطعني قائلاً:

- لا وقت للكلام ... تأنق وتعال بسرعة ... تك

كالمجنون ارتديت الثياب التي لا ألبسها إلا في الأعياد
وطرت إلى بيته ... كان ينتظرني في الأسفل، وعندما
رآني أمسك بيدي وسار مسرعاً وهو يقول:

- سننتظره أمام باب المبنى الذي يسكنه
وسنركب معه في المصعد ... لديك هذا الوقت
فقط.

ركبنا سيارة أجرة، وبعد وقت قليل كنا نقف قرب باب
المبنى... مرت الدقائق كالعادة كأنها دهر كامل، ثم
اقتربت عربة فخمة وتوقفت أمام المبنى ونزل منها
فؤاد غانم مع اثنين أحاطوا به بتجهم ... لوح له عماد
فأشار له بالاقتراب ... مشيت بجانب عماد وقد
أصابني تسارع الأحداث بذهول مطبق، وأنا أشعر بأن
ما أراه مجرد منام لا أكثر...

خاطبنا فؤاد غانم وهو يسلم علينا بسرعة:

- لنسرع للداخل قبل أن يتجمع الناس.

دخلنا المبنى واتجه بسرعة الى المصعد ودخلنا معه
بعد أن أشار لمرافقيه أن يتبعوه على الدرج ... ضغط
زر الطابق ما قبل الأخير فتحرك المصعد ببطء.

استدار لنا، وهو يبتسم وقال:

- عادة أدخل من باب الكراج الداخلي وليس من باب
المبنى، ولكن والدك يا عماد اتصل بي وأخبرني أنك
ترغب برؤيتي ... لا بأس ولكن معذرة أنا مشغول جداً،
وينتظرنني ضيوف فوق ... قال لي أنك تريد صورة
معي.

- ليست لي، ولكن لصديقي طارق.

قال، بسرعة:

- لا مشكلة أسرع والتقط الصورة، واقترب مني
واحتضنني بحنكة ومرونة وكأنه قام بهذا

مئات المرات ... أمسك عماد هاتفه وصوبه
علينا ... وقبل أن يلتقط الصورة، اهتز المصعد
بقوة ثم توقف، وانطفأت أنواره.

ساد الصمت لثوان، ثم ارتفع صراخ فؤاد غانم يلعلع
في المصعد:

- ماذا حدث للمصعد!! ... محمد ... خالد ... أين
أنتم؟؟

أجابنا أحدهم قائلاً بلهفة:

- نحن هنا فؤاد بيك ... لا تقلق، خالد ذهب ليحضر
مدير المبنى لكي يخرجك من المصعد.

- بسرعة أيها الكلاب، سأختنق وأموت.

ثم التفت إلينا وقال بانهياء:

- كله منكم ... تأكلون كالدواب وتركبون
المصاعد وفجأة يتعطل ولا يتحمل أوزانكم.

وبدأ يكيل لنا اللعنات والشتائم، وهو يلوح بيده ويدق
باب المصعد في عنف ... شتائم من النوع التي
تشعرك بأنه قادم فعلياً من أقذر شوارع المدينة ...
تكفل الذهول والإحساس بالصدمة والحصار
بإصابتي بخرس كامل، وأخذت أنظر له في دهشة ...
أين ذهبت رفته وصوته الهامس!! وهل يستحق ما
جرى كل هذا الصياح ... وما ذنبنا نحن ... لم يكن
عماد المسكين بحال أفضل مني...

بدأ شعور بغضب عارم ينتفخ داخل روعي مع
إحساس كرهه بأنني خدعت ... غضب عارم جعلني
عندما فتح باب المصعد أثب منه لأكون أول
الخارجين ... نظرت خلفي ورأيت فؤاد غانم يخرج من

المصعد كالديك المبتل ... رفعت هاتفني والتقطت له صورة، ونزلت على الدرج بسرعة ... وعندما وصلت إلى البيت، كان أول شيء قمت به هو جمع جميع صور ذلك الديك المبتل مع كافة اسطواناته وأشرطته، ورميها في سلة القمامة، أمام أعين والديّ وأخي الخرساوين ... لقد شفيت من داء فؤاد غانم هذا، ولكنني ظللت بعدها أشعر بغصة أليمة كلما صدف أن سمعته أو شاهدته يغني بصوته الحنون المميز الذي يخفي بداخله في حنكة ... لعلعة ديك مبتل.

غرقت أنا في ضحكة طويلة، وأنا أقول:

- أستطيع تخيل منظرك وأنت تتلقى الشتائم، وقد تدلى فكك وأخذ يتمايل يمنة ويسرة أمام هذا المشهد الفريد ... يبدو أن صاحبنا مصاب

برهاب الأماكن المغلقة، ولم يتحمل هذا
السجن المفاجئ فانهار مباشرة، وأخذ يفرغ
خوفه عليكم ... ولكن، ماذا حدث للصورة التي
التقطتها؟

لوح بهاتفه قائلاً:

- في الحفظ والصون ... هذه من الصور المهمة جداً
في حياتي، والتي أتأملها كلما شعرت بأنني على وشك
الانبهار بشيء ما أو بشخص ما.

- لَمْ لَمْ تنشرها على صفحتك على فيسبوك أو
تويتر؟... كانت ستأتي لك بأكوام من الإعجابات
والتعليقات ... الناس مولعة برؤية المشاهير في هذه
المواقف غير المألوفة ... يحبون مشاهدتهم ضعفاء

ممرغين بالتراب ... لذلك تنجح برامج مقالب
الفنانين التافهة.

تنهد وقال:

- برغم كل ما جرى لم أرغب مطلقاً بفعل ذلك
... سمه: العيش والملح أو العشرة القديمة ...
هناك جزء من ذكرياتي مرتبط به، ولن يسمح
لأي شخص برؤية الصورة غيري ... هو درس
لي لا أكثر ولا مكان للانتقام.

ساد الصمت لبضع دقائق، تقاطعه رشقات الشاي
ثم خطرت لي نقطة معينة، فسألته:

- لاحظ أنك من خلال قصتك تسلّم تلقائياً بأن
الركض وراء المشاهير ليس شيئاً مبهجاً، فما
هو المبرر بأن يحدث ذلك باستمرار ولأعداد

ضخمة من البشر! ؟ ما هي القيمة التي
يضيفونها لحياتهم بهذا السلوك اللامنطقي!؟

نظر لي بهدوء، وابتسم قائلاً:

- الناس تحب أن يكون هناك لحظات مميزة
في حياتهم ... لحظات تاريخية تشعرهم أن
لحياتهم المزدحمة بالأمور الفارغة قيمة ما
...مثلاً تلك الصورة التي يأخذونها مع أحد
المشاهير ويضعونها على منضدة بجانبهم،
تصنع لهم أمجادهم وتاريخهم الشخصي
وتشعرهم بأن حياتهم هي أيضاً تحوي
علامات فارقة، وتعزز لديهم الإحساس بالتميز
... لابد للإنسان من أشياء معينة تقنعه بأن
النهوض من فراشه والبدء بيوم جديد عناء له
ما يستحقه حقاً.

هززت رأسي باقتناع، على حين نظر طارق إلى ساعته
وقال باستعجال:

- لقد تأخر الوقت فعلاً ... شكراً لك على
الاستضافة وعلى الشاي الزكي ... ذكّرني أن
أسألك عن مكان شرائه في وقت ما آخر.

بينما كان طارق يبتعد ويتوارى في آخر الممر ...
اقتربت من أحد الشبابيك هناك وتأملت الساحة
التي أصبحت خالية الآن ... تذكرت تلك الفتاة التي
كانت تتأمل الحفلة في صمت ... ترى هل تعيش هنا؟

ذكرى معينة مشوشة تراودني ... ذكرى لها رائحة
قهوة منعشة، ومكان ما في عصر سابق وأحاديث
بريئة من أيام الطفولة ... هزرت رأسي في حيرة،
وعدت إلى داخل الشقة وأغلقت الباب بهدوء.

الهاربة

عامة، لا أحب العمل في الليل وأفضل الصباح عنه ...
الليل بالنسبة لي: هو وقت الإصغاء والتأمل والقراءة،
وأحياناً وقت بعض التعرض للزحام البشري ... أحب
المشي في الليل مع العلم أن الشوارع الآمنة للسير
ليلاً هنا محدودة، ولكنني أجد لذة في تأمل تفاصيل
الحياة التي أصابها النعاس بعد يوم طويل فأنزوت
تلتقط أنفاسها في سكون ... السير في الليل يعطي
أحاسيس ذات أشجان حرية التجول بين ثنايا عقلي
... حيث تستيقظ الذكريات وتقرر أنه حان الوقت لكي
تهيم في وجداني حتى لا تُنسى ... تلك الهواجس التي
تجعلني أسير على مهل كالمسحور الذي يُئس من

شفائه ... الوجوه العابرة القليلة المتعب بعضها،
واليائس بعضها، والمشحون بالأمل بعضها الآخر ...
خطوات كلية وخطوات حادة وخطوات مترددة ...
سمفونيات الليل التي تعزف كلما أرخى رداءه على
المدينة ليكون السكون هو القاعدة والصخب
استثنائها ... ذلك الصخب المحبوس في قماقم
ممتلئة بروائح الدخان والعرق وأسرار أخرى يعلمها
الجميع ... بعيداً عن كل ذلك قد تجد، لو اجتهدت في
البحث، ذلك الشارع السكني الصغير المزركش
بالأشجار، والتي تفوح منه رائحة عطر وردة ليلية
تغريك بأن تستنشق رائحتها في جشع ... تلك البقعة
الهادئة الموجودة في مكان ما والتي تتمنى، عندما
تجدها وتجلس في رحابها، ألا تنتهي تلك الليلة
الجميلة التي ضمتك في ود وملأت روحك بالبهجة،

ستجعلك في نهاية الأمر تنام في سلام وهدوء على
وقع الأحلام المتسللة اللعوب ... وعند الصباح يغدو
كل هذا مجرد ذكريات منعشة تبدأ بها نهارك بصبر
وتفاؤل.

كنت أحاول إنهاء بعض التصميمات عندما شعرت
بجوع أليم... فتحت باب الثلاجة لأكتشف أنها خالية
من أي شيء يصلح للإفطار... تأففت قليلاً، ثم نزلت
لأشتري بعض الأطعمة ... سأخبرهم أن ي اخترعوا
ثلاجة تطلق جرس تنبيه عندما تفرغ ... راقى لي
الفكرة، وتخيلت نفسي في مقابلة مع مذياع متحمس
يسألني عن اسم برجى، وكيف كانت طفولتي، وما
هي الأغاني التي أحبها، وعن كل الأمور الأخرى
الحكيمة التي لا علاقة لها بموضوع المقابلة.

عند الباب الرئيسي، لاحظت أن غرفة المشرف مزدحمة على غير المعتاد بأشخاص يبدو أنهم من جهة حكومية ما... تأملتهم بنظرات سريعة ثم تابعت سيري باتجاه المتجر القريب من المبنى ... هناك كانت في استقبالي صاحبتة مس إيديت، وهي عجوز ثرثرة لا تكف عن الابتسام ... بدانتها وملامحها الناعمة جعلتها أشبه بطفلة عجوز ... تعرفون هذا النوع الودود من البشر لدرجة مرعبة حقاً ... الحياة عادة لا تسير بهذا النحو، ولا بد من بعض العبوس وإلا ستبدو أشبه بسفاحي السينما، أصحاب النظرات الرقيقة الذين يملؤون أقبية بيوتهم بالجثث ... جمعت ما أريده بسرعة، وأنا أرد بدبلوماسية على أسئلتها الفضولية التي تكررهما على مسامعي دائماً، وعدت أدراجي.

عندما مررت من غرفة المشرف، لاحظت أنها خالية من سواه على حين جلس هو يحدق بتجهم في شاشات المراقبة ... وقفت عند الباب وتنحنحت، فنظر إليّ ثم عاد لوضعه السابق ... كان هناك نوع متحفظ من الصداقة، نمت بيننا بعد تلك الليلة إياها، عندما ضبطني أتنصت على شقة العم صلاح.

يبدو أنه يقدر الشخصيات الفضولية بحكم عمله الأمني السابق... قال لي بملل:

- تريد أن تسأل عن السادة المحترمين الذين كانت تمتلئ بهم الغرفة ... دعك منهم ... القصة أن هناك فتاة من عندكم هربت إلى هنا ... السبب هو معاملة أهلها التي لا تحتمل ... لا مشكلة عندي في دعم قيم الحرية ونشرها في كل مكان ولكن...

وانتفخت أوداجه وأصبح كلامه أشبه بالصراخ، وهو يكمل:

- ولكن أن يصل الأمر إلى التدخل في عملي وفرض الأوامر فهذا أمر مختلف تماماً ... تصور!! ... يريدونها أن تقيم هنا!! تركوا كل أماكنهم الآمنة ويريدونها هنا!! من الأحمق الذي خطط لذلك!!؟ وبأي منطق!؟

وسكت وهو يلتقط أنفاسه ... فكرت قليلاً فيما سمعت، ثم قلت بحذر:

- فعلاً، المكان هنا خطر بالنسبة لها ولا منطق في أن تقيم فيه... أرجو ألا يقع اختيارهم على طابقي فلا أرغب في...

قاطعني بسرعة، قائلاً:

- لا طابقك ولا أي واحد آخر ... هناك جناح صغير منعزل له مدخل خاص به خلف المبنى ستقيم فيه .. سيتملى المكان بثقيلي الظل الذين لا سلطة لي عليهم ... وأنت!! اذهب من هنا فقد سئمت من الكلام معك.

وكان هذا المخرج المريح من صاحبنا الغاضب من التعدي على منطقته ... سأنصحه، بعد أن يهدأ، بالهجرة إلى أي دولة عربية والعمل هناك ... سيجن من الفرحة حتماً وسيشعر أنه وجد فردوسه المفقود.

وضعت الشاي على النار وصففت أطباق الطعام على المائدة وجلست بعدها لأرى ما هنالك ... لم أعد أتابع التلفاز منذ زمن طويل فلا وقت عندي من جهة، ومن جهة أخرى ما يوجد في النت يكفي وزيادة ... وصلات الرشح التي تنهمر على رؤوس المشاهدين والتي

تعرض مقاطع منها في برامج اليوتيوبرات تجعلني
أحمد الله على أنني أقلعت عن تلك العادة السيئة ...
يجعلونك تجلس طوال النهار تتابع الشتائم والأخبار
المكررة، لتكتشف في نهاية اليوم أنك مجهد الأعصاب
من لا شيء، وأنت أهدرت وقتاً ثميناً على أخبار أغلبها
ناقص ومفسّر بطريقة ترضي ممولي القناة لا أكثر.

لنرى ما هنالك

كان هذا هو الخبر الرئيسي على جميع المحطات ...
فتاة خليجية تفر من أهلها وتسافر عبر عدة بلدان إلى
أن تستقبلها حكومة البلد هنا ... مؤتمرات صحفية،
وتصريحات، وهناك من يشتم الفتاة واصفاً إياها
بأبشع الصفات، وهناك من يشتم بأهل الفتاة،
وهناك من يشتم كل من يصل إليه لسانه بعد أن
حصل على جنازة سيشبع فيها لطماً وصراخاً.

هكذا لن تعرف بحقيقة ما جرى ... تأملت صورتها
المركونة بزاوية الشاشة ... فتاة عادية جداً بلا أي
شيء مميز وعمرها لا يسمح لها بأن تكون خريجة
جامعة ما ... ما أثار دهشتي أن طريقة الهرب التي
يتكلمون عنها تبدو أقرب لقصص الجواسيس أكثر
مما تستطيع فعله هذه البائسة ... هذه البهارات لا
غنى عنها في أي خبر ليشعروك بأهمية ما تراه مهما
كان.

في تلك اللحظة، سمعت صوت بضع عربات تتوقف
في مكان ما حول المبنى ... مددت رأسي من الشباك
فرأيت الفتاة نفسها تسير بصحبة امرأتين وعدد من
الأمن للطرف الآخر من المبنى... كان إبريق الشاي قد
بدأ بالصفير فذهبت لإسكاته وإسكات معدتي.

كانت الساعة قد اقتربت من الساعة حين انتهيت
من العمل ... بقي ساعتان على موعد صالون عم
صلاح الموسيقى ... الواقع أنه ليس موسيقياً بحتاً،
فأحياناً تتبادل بضعة آراء حول قضايا مختلفة نراها
تستحق، ولكن الغالب على جلساتنا هي تلك
الموسيقا الحية وليدة اللحظة ... الشيء الجميل في
صالون عم صلاح هو تنوع الألحان التي تعزف فيه
على نحو لا يثير الملل... ألحان منسية قديمة تبعث
النشوة إلى قلبك مع كلمات أتساءل أحياناً عن نوع
المزاج والعاطفة التي كتبت بها ... ساعات تمضي
بسرعة لتعود بعدها الى حياتك الاعتيادية في رضا ...
سيكون لدي وقت كاف لقيولة قصيرة قبل موعد
الصالون. وهكذا كان.

قبل أن يبدأ العزف، وبطبيعة الحال، كان موضوع الحديث عن تلك الفتاة الخليجية الهاربة، وأول الكلام كان من العم صلاح الذي قال وهو يضبط بعض أوتار عوده:

- سمعت أنها ستقيم في المبنى هنا.
- هذا صحيح ... تحديداً في جناح مستقل في الطرف الخلفي.

سحب طارق نفساً من النارجيلة وقال باستهزاء:
- هذا شيء عظيم ... سنقدم أيضاً اقتراحاً للإدارة بتسمية المبنى باسم الباحثة عن الحرية ... ومن يدري لعلهم يحولونه فيما بعد لمتحف لعرض آثار حرية البشر عبر التاريخ.

ابتسم الجميع بسخرية، وقال عم صلاح:

- لا أدري ما دخل الحرية بهذا الموضوع!؟ فتاة
بِعمر صغير نسبياً تقرر الهرب خارج مجتمعها
بدعوى أن أهلها يعنفونها، ويصادرون حريتها،
هذه الحوادث موجودة دائماً بكل مكان، وهي
تكشف عن جهل في التربية، ولكن هل حقاً
هذه هي الحقيقة هنا!؟ ... القصة تعتمد على
كلامها هي لا أكثر ... المشكلة أن هناك من
استغل ما حدث لنكيات بين الدول تشبه
نكيات الحموات، وفي النهاية وبعد أن تطفأ
الأضواء وتسدل الستارة سُنسى القضية
كلها، وسيكون عليها مواجهة الغربة بنفسها
بعد أن أغلقت بكل جهل وقلة معرفة كل
طرق العودة.

قلت بهدوء، وأنا أرتشف قليلاً من الشاي:

- سيكون يوم فرحة عظيم للمشرف عندما
يقررون نقلها من هنا لمكان آخر ... المسكين
يشعر بأن هناك من يعبث بحقوقه السيادية،
ولا يستطيع حتى الاحتفاظ بحق الرد.

سرت بضع ضحكات خفيفة، بدأ بعدها العزف،
وأخذنا ننصت بشغف وقد نسينا القضية كلها.

بعد نصف ساعة تقريباً، دق جرس الباب بإلحاح ...
توقف العزف مرة واحدة، وقال عم صلاح:

- تأكد يا طارق أن رحمي هنا ولم يذهب ليبلغ
عنا الأمن هذه المرة أيضاً.

رفع طارق يدي وهو يقول:

- متأكد، يا عم صلاح، إلا إذا كان له أخ توأم ...
ستكون هذه مصيبة كبيرة بحق هذا الكوكب.

نهض عم صلاح قائلاً:

- أمري الى الله ... سأرى من وراء الباب.

عندما فتح عم صلاح الباب، رأى إثنين من الأمن يقفون حول الفتاة الخليجية إياها التي قالت له بسرعة:

- أخبروني أنك تقيم حفلاً موسيقياً في بيتك ...

هل تسمح لي بالدخول والانضمام لكم ؟

لم يستوعب عم صلاح المفاجئة، فقال من دون تفكير:

- ادخلي أنت فقط...

ساد صمت ثقیل أنحاء الغرفة ونحن نحدق بالداخلین
... الفتاة التي أخذت تنظر إلینا بدهشة ممائلة، وعم
صلاح الذي أطرق وهو یکاد یضرب کفاً على کف.

على حين صاحت الفتاة باستنکار:

- هذا ليس حفلاً موسیقياً... أين الغیتار والأورغ
والراقصین! ؟

انفجر الجميع بالضحک، وهز طارق مبسم الشیثة
في استمتاع قائلاً:

- هذا تخت شرقي، وليس بانیو غربي، لا مؤاخذه.

بحركة حادة استدارت الفتاة وغادرت المنزل كله
ودوى صوت الباب وهو یغلق بقوة.

لدقائق، انتشرت أصوات ضحكات وأحاديث جانبية
في أنحاء الصالون، ثم رفع عم صلاح يده وقال:

- دعونا لو تكرمتم نكمل العزف بعد هذا
الفاصل الهزلي، ولنحمد الله على أنها لم
تتحزّم عندما اكتشفت أننا تحت شرقي كما
قال عمنا طارق.

وعاد العزف سيداً للموقف مرة أخرى.

كان النعاس قد بدأ يتسلل إليّ بهدوء عندما غادرت
شقة عم صلاح ... ذلك النوع اللذيذ من النعاس الذي
يجعلك لا تميز بين ما حدث حقاً وبين ما حدث في
خيالك ... النوع الذي يعدك بليلة خالية من الأرق ...
بقايا الألحان في مخيلتي وقد تناثرت الكلمات بمعان
غامضة تملأ نفسي بشعور جميل مرهف.

كنت قد وصلت الى منتصف الممر تقريباً عندما
شممت رائحة العطر تلك ... رفعت بصري فرأيتها ...
كانت آتية من الطرف الآخر تسير بخطوات سريعة ...
الشعر المضفر المتراقص بهدوء مع وقع خطواتها
السريعة ... ثيابها الأنيقة المحتشمة، على غير عادة
من هم في سنّها هذه الأيام ... الهدوء الذي يميز وجهها
ذو الجبين العريض ... الصرامة التي يشوبها حزن
يختبئ وراء أهدابها اللتين ترمشان في رقة ... الجمال
الذي يغلف تفاصيلها كوردة موضوعة داخل جوهرة
... تخيلت لأول وهلة أن حلماً سبق وصولي الى
الوسادة وغافلني وبدأ ... ولكن نسيمات الهواء العطرة
التي سببها عبورها جانبي، همست لي بأنها هي
الحقيقة بخلاف ما عداها ... عندما التفت خلفي كانت
قد مضت ... كانت هي نفسها الفتاة التي كانت تتأمل

من بعيد الحفل الصاحب الذي حضرته مع طارق ...
ولكن البعد لم يهيني فرصة كمثل فرصتي الآن،
وبقية لمحات خيال معينة تشدني إليها.

ولكن!! ... أليس من العبث هذا التسرع في إبداء
العواطف تجاه فتاة لا أعرف عنها شيئاً؟ هل أنا أبالغ
بهذا الانجذاب المبكر الذي هو أشبه بحب من أول
نظرة؟! وهل توصيفه بالحب هو مبالغة أخرى لأمر لا
يعدو انجذاباً لتفاصيل أنثوية أثارت انتباهي في
لحظات كانت روعي جاهزة لهذا الانجذاب لا أكثر.

هزرت رأسي بحيرة ... كان الإيقاع الذي خلفه صالون
عم صلاح قد توقف الآن، وبدأت أفكار عديدة تلهث
في رأسي...

ولم ينقذني من ذلك كله سوى نوم عميق.

أثر الصفعة

قال عم صلاح:

ما يحدث الآن هو مثال عملي عن الأفعال الصغيرة التي تؤدي غالباً إلى أحداث كبيرة ... لو لم يصفح ذلك الجندي الإنجليزي عن هتلر لكان اختفى من التاريخ وتغيرت أمور كثيرة ... الصفعة التي تلقاها البوعزيزي، وأطاحت وقتها الرئيس التونسي.

قلت، وأنا أنظر بحذر من خلال النافذة:

- فلنأمل ألا تسبب هذه الصفعة الأخرى في إطاحتنا نحن.

ساد بعد ذلك صمت ثقيل في الغرفة، ولم يعد يُسمع
إلا أصوات المحتشدين خارج المبنى المنذرة بالويل.
طبعاً لم تكن هذه بداية القصة ... البداية حدثت قبل
ذلك بيومين تحديداً، وأخبرني أحد الشهود بما جرى
بالتفصيل.

دعوني الآن أقدم لكم داوود ... داوود هو أحد الطلاب
المقيمين في المبنى ... تشريحياً هو عبارة عن كتل
عضلية متراصة بشكل تندهش بعده من أنه مجرد
طالب جامعي ... داوود يحب الذهاب إلى مرقص ليلي
معين بين وقت وآخر ... ليس لشرب الشاي طبعاً ...
لا تنسوا أننا في بلد أجنبي وهذا تفصيل اعتيادي هنا
... رقص وعرق ومصاحبة فتيات ... في تلك الليلة كان
بصحبة بعض أصدقائه عندما دخل إلى هناك وجلس
وأخذ ينظر حوله، بعد دقائق وقع نظره على ريتا)

صديقه السابقة)... يبدو أن هناك أسباب قوية جعلتها تأخذ هذا اللقب، لأن نظرات الغضب والاشمئزاز التي تبادلوها كانت طاغية لدرجة أثارت انتباه عدد غير قليل من الحاضرين ... سألتها صديقها الجديد عما هنالك ... فحكّت له عن داوود الخشن اللفظ معها ... كما تعلمون نحن نحب أن نلعب دور الشهداء، ونمارسه بكفاءة لدرجة أصابت صديقها بحماس غاضب، فقام واتجه إلى طاولة داوود، وقال بصوت عالٍ:

- لماذا تنظر إلينا هكذا يا كومة القمامة !!؟

لثوان، تبادل داوود النظرات مع أصدقائه، ثم قال له بسخرية وهو يشير لريتا التي وقفت بجانب صديقها:

- كومة القمامة هي بجانبك يا غبي، تباً لما
يفعله المشروب الرخيص ... عد الى طاولتك
قبل أن يصبح كومتين.

احمرت عينا الشاب على حين أخذت ريتا تروح
بشتائم عنصرية قذرة لدرجة استفزت داوود، فقام
واقترب منها ... وصفعها بقوة.

للحظات، ساد صمت ثقيل جداً بعد أن توقفت
الموسيقا وتسمّر الجميع في أماكنهم ... على حين
تمتم صديق ريتا ببطء مخيف:

- لو كنت قد فعلت أي شيء غير ما فعلت
أيها التعس ... أقسم أنك ستندم.

إزاء ردود الأفعال غير الاعتيادية تلك ... شعر داوود
ورفاقه بالتوتر؛ فغادروا المرقص على عجل وعادوا
إلى بيوتهم.

كانت تلك البداية ... أما ما حدث بعدها فهو الآتي...
في الصباح، كان المشرف يقوم بجولة حول المبنى
عندما شاهدها ... عربة سوداء كبيرة تسير بسرعة
أمام باب المبنى، ثم عاد ولمحها تمر من وراء الجدار
عندما وصل إلى الطرف الغربي ... ثم رأى عربة أخرى
تشبه الأولى تعبر باستمرار بموازة المبنى ... هذا
سلوك غير مريح ... فكر قليلاً ثم عاد إلى غرفته
واتصل بأحد أصدقائه النافذين ... دق جرس الهاتف
بضع مرات من دون رد ... حاول أكثر من مرة بلا
نتيجة ... غالباً هو نائم أو في اجتماع ... فليكن.

في تلك الأثناء، كان داوود يتشاءب في فراشه وهو يحلم
بساعة نوم أخرى ... استدار وهو يشعر بصداخ خفيف
... فجأة تذكر ما جرى البارحة فعقد حاجبيه في ضيق
واعتدل جالساً ... بالنسبة له كانت ردة الفعل التي
حدثت في المرقص غير مفهومة... كل الذي حدث هو
صفعة ليس أكثر!! أطار تلك الذكرى اللصيقة بقية
النوم من عينيه ... أمسك هاتفه، وتكلم مع واحد من
شلتة، وعلم أنهم في الجامعة، فارتدى ثيابه توطئة
للذهاب إلى هناك هو الآخر ... لم يكن لديه محاضرات
صباحية، ولكن الحيرة أربكته وجعلته بحاجة ملحة إلى
صحبة بشرية.

عندما اقترب داوود من باب المبنى الداخلي وهمّ
بالخروج الى الحديقة، لمح صديق ريتا الجديد واقفاً
في الطرف المقابل لباب المبنى الخارجي، هو وعدد

كبير من الشباب التي لا تبشر ملامحهم وطريقة وقوفهم بخير ... لا يمكن أن يكون الأمر مجرد صدفة أبداً ... استدار عائداً إلى الداخل وهو يكتب لأصدقائه في مجموعة الواتس عما شاهد ... مر بجانب غرفة المشرف فوقف متردداً ... كان قد وصل إلى يقين واضح بأن القصة ليست بسيطة إطلاقاً ... وأنه لابد من استشارة وسؤال شخص ما عما يحدث بالضبط.

كان المشرف يشعر بحاسته الأمنية تتوهج باستمرار، مع جملة معينة ملأت تفكيره ... هناك أيام سوداء قادمة ... أمسك هاتفه مرة أخرى ليتصل بصديقه النافذ إياه ... ولكن قبل ذلك كان داوود قد دخل للغرفة، وحياه ثم سكت، وأخذ ينظر للمشرف بملامح مترددة، فقال المشرف في صبر نافذ:

- اسمع يا بني ... نحن لسنا هنا في خطبة
رئاسية أو في حفل تخرج ... أفرغ ما بعقلك
مباشرة فلا وقت عندي لك.

قال داوود مباشرة:

- يبدو أنني بغير قصد جلبت مصيبة على
رأسي ورأس المبنى كله.

وهكذا نجح داوود في الحصول على كل وقت
المشرف.

- تصفع فتاة أمام الناس ثم تقول لي ما
المشكلة!!!

صرخ المشرف وقد انتفخت شرايينه وأخذ يهز يده
بعنف.

- أنت هنا منذ سنتين ولم تكلف نفسك
بمعرفة عادات البشر هنا ومعتقداتهم!! هذا
التصرف الطائش هو شبيه جداً بنزع الحجاب
عن رؤوس فتياتكم ... قل لي ماذا ستفعل
وقتها؟! وهل كنت ستتركه يخرج من
المرقص حياً؟

تجمد داوود تماماً ولم يدر ما يقول، فأشار المشرف
لباب الغرفة وقال له بحة:

- اذهب لغرفتك ولا تغادرها ولنرى ما أستطيع
فعله.

دق هاتف المشرف في تلك اللحظة، نظر الى شاشته
ثم التقطه بسرعة قائلاً:

- كيف حالك يا عزيزي ... معذرة على إزعاجك
في ذلك الوقت و...

قاطعته المتكلم بهدوء:

- يبدو أنك تواجه مشكلة كبيرة يا صديقي.

- علمت منذ دقائق بما حدث، وكنت أريد التحدث
معك بهذا الموضوع بالذات.

- سأرسل لك بضع دوريات من الشرطة ... لا تعتمد
عليهم كثيراً فهناك لا شك من سيخلع رتبته منهم
وينضم الى المحتجين.

غمغم المشرف:

- هل الأمر بهذا الحجم حقاً!!؟.

صمت الصوت من الطرف الآخر قليلاً، ثم أجاب:

- فالنأمل أن يقتصر على ذلك فقط ... سأتصل بك قريباً، وأنهى المكالمة.

بدأ الهجوم بعد ساعة من ذلك بالتحديد ... كنت وقتها أضع اللمسات الأخيرة على تصميم أرهقني منذ الصباح عندما سمعت صوت صيحات مختلطة بصوت خبطات معدنية قوية ... شعرت بخوف مبهم، دفعني للخروج من الشقة والنظر من إحدى الشبائيك المطلة على الحديقة ... شاهدت عشرات من الشباب المحليين المسلحين بعصي وسكاكين يقفون بمنتصف ساحة المبنى، وهم يكيلون عشوائياً مختلف الشتائم التي كان بعضها عنصري ... وعلى الطرف الآخر كان هناك عشرات من الشباب الذين يبدو أنهم عرب متجهين بتصميم نحو المجموعة الأولى ... لمحت خارج المبنى عدة سيارات

شرطة واقفة هناك... كيف دخل أولئك إذن؟ وماهي
المشكلة أساساً!!؟

في تلك اللحظة بدأت المعركة ... كان هذا أدق
توصيف يمكن استعماله هنا ... لا يستطيع تفسيركم
الوحشية التي أشاهدها أمامي إلا طبيب نفسي ...
كان الشباب المحليون يحاولون الوصول الى شاب
معين من ساكني المبنى بمحاولات أقرب للخطف،
على حين استمات رفاقه في منع حدوث ذلك ... لم
أعد أستطيع احتمال المراقبة في صمت، فنزلت
بسرعة الى شقة طارق، ووجدته واقفاً هو الآخر أمام
أحد الشبابيك يعبث بلحيته ويضحك بأصوات خافتة
ويهز رأسه بين الحين والآخر في سخرية ... اقتربت
منه وسألته مباشرة:

- ماذا يحصل في الأسفل !!؟

التفت إليّ، وقال بضحكة عصبية:

- علمي علمك ... أنا الآخر أصابني الاستغراب
من هذا المشهد الملحمي.

يبدو أنني لن أحرم من رؤية المشاجرات التي كانت
تحدث في شوارع الوطن ... عادة، تنشأ هذه الحروب
إما من أجل فتاة أو من أجل صنم القبيلة الذي دنسه
أجنبي ما.

شاهدنا الشرطة في تلك اللحظة تتدخل وتفرق
المتصارعين من دون أن تعتقل أي شخص منهم ...
بدأ الشباب المحليون بالخروج وهم مازالوا يشتمون
ويتوعدون الجميع ... بعدها قام حرس باب المبنى
الخارجي بإغلاقه بإحكام ... لقد أصبح النزول ومعرفة
ما يجري ممكناً الآن.

في غرفة المشرف عرفنا ما حدث بالتفصيل ... بعد أن
سكت المشرف، سألته:

- لماذا لم تتدخل الشرطة منذ البداية
ومنعتهم من الدخول للمبنى وفعل ما فعلوه
؟!!

عندما سمع سؤالي قلب شفتيه، وقال بضيق:

- يريدون حل المشكلة بالطريقة السهلة ...
دعونا نعطي الفرصة لأولئك الغاضبين لكي
يأخذوا ما يريدون، بعدها سيعطون ألف تبرير
لما جرى أمام الإعلام الذي سينصرف سعيداً
بما سينشره في الغد، ويعود رجال الشرطة
ليناموا في أسرّتهم، ويكون الخاسر الوحيد هنا
هو داوود.

ثم خرج لأمام باب المبنى الرئيسي، وقال بصوت عال:

-لقد أعطيت أوامري للحراس بإغلاق الباب الخارجي ... من يخرج سيفعل ذلك على مسؤوليته، ولن يستطيع العودة لأن الباب ببساطة لن يفتح له ... لا أنصح أحد بفعل ذلك لأنه سيواجه بعدها أولئك المتعصبين، ولن تكون تجربة سارة وغالباً لن ينجده أحد ... سنحتاج إلى بعض من الصبر حتى نخرج من هذه الأزمة.

سأله أحد الواقفين بدهشة:

- هل تقصد أننا محاصرون !!؟

أجابه بجمود:

- للأسف، لا أملك طريقة أخرى لوصف الموقف ... نحن فعلاً محاصرون أيها السادة.

سأله طارق بحيرة:

- لماذا لا يفرقهم رجال الشرطة وتنتهي القصة؟

هز المشرف رأسه ساخرًا:

- تنتهي القصة !!؟ لو فعلوا ذلك الآن فلن تنتهي القصة أبدًا ... سيظل المبنى مستهدفًا، ولن يهدؤوا قبل إلحاق أكبر قدر ممكن من الأذى، ولو بعد أشهر من الآن.

سأله أحدهم:

- ماذا سيحصل الآن! ؟

- لن يحصل شيء ... ستتابعون حياتكم بشكل
اعتيادي لحد ما بافتراض أن العالم هو هذا المبنى
فقط، وأن العالم الخارجي لا يصلح للحياة ... قد نرسم
ما حصل وسيحصل على الجدران كالفراغة كيلا يزور
أحد مأساتنا ... حان الوقت لتنفيذ أحلامكم المؤجلة،
ولديكم وقت لا بأس به لذلك.

سكت بعدها المشرف شاعراً بالرضا على توزيعه هذا
المقدار من الطاقة السلبية، على حين أخذ ساكنو
المبنى يغادرون الى بيوتهم محبطين ... التفت إلى
طارق وسأله:

- ما رأيك بما سمعت ؟

ضيّق عينيه، وقال ساخراً:

-منتهى الروعة ... أتصوّر نفسي محبوساً مع هذا
الكم الهائل من العجائز المتشككين بكل شيء
والحمقى والفضوليين والمتظارفين ... ستكون أياماً
لا تنسى.

هزرت رأسي قائلاً:

- كان ينقصنا طاقة سلبية أخرى ... ما رأيك أن نجتمع
عند عم صلاح مساء اليوم ؟

- فكرة لا بأس بها ... سأقترح عليه أن تكون معزوفاته
حزينة هذه المرة ... وقد أقنعه بعزف أوبرا روسية
منعاً للملل ولتضييع الوقت.

وعدت إلى شقتي برأس مترع بالأفكار.

عندما اجتمعنا عند العم صلاح كان الجو متوتراً إلى
حد ما ... هناك العديد ممن لم يحضروا كون بيوتهم

خارج المبنى ... جلست بجانب عم صلاح الذي أخذ
يداعب عوده بلحن ما، لم أتبينه جيداً في البداية ثم
تذكرته ... العيون الناعسة لمحمد قنديل... كان
والدي، رحمه الله، يحب سماع هذه الأغنية في
العصاري.

النهار المتعب الذي أوشك على المغادرة وقد
زركشت الشمس الكون المرئي بأشعة ذهبية صافية
... الصمت الذي خلف ضجيج الزحام بعد أن سكن
الناس في بيوتهم طالبين للراحة ولنسمات الصيف
الرحيمة ... بدأت بالغناء مع الألحان، وأخذ صوتي يعلو
مع تناوب العود والكمان ... عندما انتهت الأغنية، أخذ
الحاضرون يصفقون بحماس، وقال لي عم صلاح،
وهو يضحك:

- لم أتوقع أن صوتك جميل.

رد عليه طارق قائلاً:

- اعمل فيه معروف واكتشفه يا عم صلاح ...
إذا فلح في الغناء سأتحزم وأرقص في حفلاته
الخارجية.

وضحك الجميع في مرح ... وفتحت فمي لأقول شيئاً
ما، عندما ارتطمت حجرة بزجاج الشباك...

تراجع الحاضرون في دهشة وخوف ... لحسن الحظ
كان الزجاج سميكاً وأحدث شراً صغيراً فقط... في
الثواني التالية، سمعنا صوت زجاج يتكسر مع صوت
تناثره في شقة قريبة ... استدار أحد الحاضرين وسألنا
بتوتر:

- ماذا سنفعل الآن! ؟

أجبت في ضيق:

- تَباً لكل هذا العبث ... شاب وفتاة أحمقان
يتسببان بهذه المهزلة السخيفة، ونجبر نحن
على الاختباء كالفئران.

أشار طارق بيده للشباك، وقال بسرعة:

- لنبتعد كلنا عن الشباك، ولنبقى في الطرف
الآخر، ولندعو الله ألا يكونوا أولئك الهمج
مسلحين بصواريخ موجهة.

قال عم صلاح:

- ما يحدث الآن، هو مثال عملي عن الأفعال
الصغيرة التي تؤدي غالباً إلى أحداث كبيرة ...
كالصفعة التي تلقاها البوعزيزي وأطاحت
وقتها بالرئيس التونسي.

قلت، وأنا أنظر بحذر من خلال النافذة:

- فلنأمل ألا تسبب هذه الصفعة الأخرى في
إطاحتنا نحن هذه المرة.

ساد بعد ذلك صمت ثقيل في الغرفة.

وبرغم سماكة الزجاج فقد أخذت أصوات
المحتشدين خارج المبنى تصل إلينا ... لا أعتقد أن ما
يحصل هو مجرد ردة فعل عن الصفعة فقط ... من
المؤكد أن هناك جهة تستغل الموقف لتحقيق
مكاسب سياسية ما تحت غطاء ما حدث ... دارت
عدة أحاديث متفرقة، ثم أخذ الحاضرون يغادرون
تباعاً، وكنت أنا وطارق آخر المغادرين.

استيقظت في الصباح على صوت مروحية تحلق على
ارتفاع قريب جداً من المبنى وتصدر صوتاً أصابني
بالرعب ... قمت من فراشي، وارتديت ثيابي على

عجل لأرى ما هنالك ... كيف سينهي حضرة الكاتب
هذه القصة؟! فكرت بغیظ، وأنا أسرع إلى غرفة
المشرف ... يبدو أنه بالغ حقاً ... مروحية!! لم يبق
سوى القصف المدفعي، وبعض القنابل الفوسفورية
... دخلت إلى غرفة المشرف المزدحمة بالناس، وما إن
رأني حتى قال بسرعة:

- لا تسأل نفس السؤال، فقد نفذ صبري حقاً ...
سلطنة برونای أرسلت مروحية لإجلاء أحد
مواطنيها من هنا.

تسمرت مدهوشاً، ثم قلت بأسف:

- مواطن محظوظ حقاً ... غالباً لن يسأل أحد
عن جثتنا، وسنكون وجبة دسمة لطلاب
الطب في المشفى العام هنا.

قال المشرف، وهو يهز كتفيه:

- جواز سفرك هو الفيصل في الظروف الراهنة
... فالنحمد الله أنه لا يوجد أمريكيون هنا ...
سنذهب عندها بين الأقدام بعد أن يعلن العم
سام أنه يشم رائحة إرهاب في الموضوع،
ويطلب تدخلاً عسكرياً لحل المشكلة.

عاد صوت المروحية يدوي في تلك اللحظة ... خرجنا
إلى حديقة المبنى لنرى ما يجري، ولمحنا المروحية
تبتعد إلى مكان ما، وصوتها يخفت تدريجياً ... اقتربت
من باب المبنى ونظرت للعالم الخارجي بفضول ...
على الطرف الآخر، لمحت عشرات الأشخاص يقفون
في مواجهة المبنى على شكل مجموعات تراقب ما
يجري حول المبنى، وليس المبنى نفسه!! من هؤلاء

يا ترى !!؟ سألت عنهم الحارس الذي كان يدخن
سيجارة بملل، فقال لي بلا مبالاة:

- هؤلاء أتوا من أجل إبعاد الثائرين عن المبنى بعد
رمي الحجارة الذي حدث البارحة.

- هل هم من الشرطة ؟

- لا، بتاتاً، هم مدنيون أغلبهم من الشيشان والأرمن
... عندما سمعوا ما يحدث للسُمر مثلهم الساكنين
هنا، تدخلوا، وحصلت في الليل مشاجرات كبيرة
انتهت بإبعاد الثائرين عن المبنى.

- إذن، انتهت المشكلة وباستطاعتنا الخروج.

نظر إليّ بسخرية، وقال:

- قلت لك: أبعدتهم فقط ... هم يقفون في آخر الشارع وقد بدأ ينفذ صبرهم ... أنصحك بالعودة للمبنى فالمكان خطر هنا.

عدت للداخل بشرود ... هذه هي العنصرية في أبهى صورها... السُمر في مواجهة البيض ... بهذا التصاعد في الأحداث لن أستغرب أن تقوم حرب عالمية آخر الأسبوع ... يعلم الله كيف ستنتهي هذه الأيام الثقيلة ... عادة، أنا معتاد على البقاء في المبنى ولا أخرج منه إلا نادراً، ولكن شعور الحصار هذا يجثم على أنفاسي حقاً... هكذا تصبح الدنيا ضيقة حقاً، ولا تستطيع أن....

وكان لا بد للمشهد التالي أن ينسيني تماماً ما كنت أفكر فيه ... لقد كانت هي ... كانت تقف عند باب المبنى الرئيسي تتكلم مع المشرف، وقد ارتسم على

وجهها الجميل بعض الضيق... للحظات تحولت إلى
شاب مراهق صغير فاقد الحركة ولا يدري ما يفعل
... هذه أول مرة أراها في الصباح الذي لم يعد صباحاً
حقاً بعدها ... اقتربت بهدوء محاولاً عدم لفت الأنظار
لتلك التعابير المرتسمة على وجهي الكفيلة بفضحي
أمام الناس... قبل أن أصل بقليل كانت قد استدارت
وغادرت لداخل المبنى ... كان هذا متوقعاً عموماً ...
تأملت الواقفين حولي، فلمحت عم صلاح يقف شاردأً
أمام إحدى النوافذ ... شعرت بفرحة طاغية وأسرعت
نحوه، وبعد عبارات الترحيب المعتادة سألته مباشرة
:

- من هي تلك الفتاة التي كانت تتكلم منذ

قليل مع المشرف؟

نظر لي ساهماً، ثم قال:

- هل تقصد ليلي ... تلك الفتاة التي تجدل شعرها؟
- اسمها ليلي! ؟ حسبت أنه خارج الاستعمال منذ
زمن طويل.

تأملني بابتسامة طويلة، وقال:

- هي استثناء من ذلك ... ألمح تلك النظرات
وتلك اللفظة في عينيك ... مشاعرك تتسلل في
خبث إلى وجهك لتفضحك يا صديقي ... ليلي
تعيش مع أمها في إحدى الشقق هنا ... ونعم،
هي عذباء وليست مرتبطة بأي أحد ... وتلك
هي المشكلة.

نظرت له بتساؤل، فأكمل قائلاً:

- نعم، كما سمعت تلك هي المشكلة ... ليلي
لا ترغب أبداً في الارتباط بأي أحد ... شبان

عديدون حاولوا، وكانت تردهم بحزم وأحياناً
بقوة ... بقوة حرفياً ... هذه الفتاة تمتلك لساناً
قتالياً صامداً ... وردة، أشواكها صلبة جداً،
وهناك العديدون ممن تواقحوا معها،
فأذاقتهم علة لا تنسى.

تمت في إحباط:

- لم هي هكذا! ؟

- حاولت أن أسألها أكثر من مرة، ولم أحصل على
جواب واضح ... كانت دائماً ترد علي بكلام مبهم ...
زمان كانت تأتي أحياناً لحضور صالوني ... تجلس في
مكان معين بملامح وكيفية لا يجرؤ أحد بعدها على
التبسط معها ... لكن فوزي لم ييأس، وحاول
التحدث معها أكثر من مرة و...

- من هو فوزي هذا ؟

- كان يسكن في المبنى هنا ... أحبها بشدة ... وكانت تصده باستمرار ... أفهمته أنه من غير اللائق أن يحاول الحديث معها داخل الصالون ... استجاب على مضض ... في النهاية يبدو أنه أوقفها في مكان ما وصارحها بحبه وبأنها ستكون له بكل الوسائل ومهما كانت النتيجة ... شاب شرقي يمتلك دماء حارة فعلاً ... الواقع أن رد فعلها كان حاراً هو الآخر ... حاراً لدرجة لم يحتملها فوزي المسكين الذي جمع حوائجه في صمت ورحل إلى مكان آخر ... ولم تعد تأتي إلى صالوني بعد الذي جرى ... عاتبته على ذلك، فقالت لي: أنها تشعر بالذنب على تخريب حياة فوزي، وأنها قررت تجنب الحضور للصالون مجدداً لكيلا يحصل أمر آخر مشابه.

ساد الصمت لعدة لحظات، ثم استطرد عم صلاح
قائلاً:

- أعرف تماماً ما تشعر به ... أنا الآخر كنت شاباً
في يوم ما ولم أولد عجوزاً ... لن أنصحك
بشيء لن تستطيع تنفيذه ... لكن أقول لك
فقط: كن حذراً، ولا تضع نفسك في مشكلة
معهـا... قد يحدث شيء ما يجعل حالها يتبدل
وعندها يكون كلام آخر.

سألته في جمود:

- ماذا كانت تريد من المشرف ؟

- كانت غاضبة من الحصار الذي نتعرض له، وتريد
الذهاب لعملها ... هي تعمل في أحد دور الأزياء
الخاصة بالنساء، وتخشى أن تفقد عملها إذا تغيبت

لفترة أطول ... أمها امرأة مسنة مريضة، كانت أستاذة
جامعية فيما مضى ... والدها متوفٍ منذ زمن ...
عائلة صغيرة بنت ناس ومحترمة ولم نسمع عنها
أبداً ما يشين.

شكرت عم صلاح على تلك المعلومات، وذهبت
مثقل القلب إلى شقتي ... كنت بحاجة إلى الاختلاء
بنفسي بعد الذي سمعته ... جلست في الصالة أتأمل
العربات التي تمضي من بعيد ... لم أكن معتاداً على
تأمل هذا المشهد بضوء النهار ... ولكن هذا الشعور
الذي كان مزيجاً من اليأس والإحباط، جعلني بحاجة
إلى تلك الرتبة بعيداً عن التمرجات الصاخبة التي
ألّمت بتفكيرتي...هذه فتاة دخلت قلبي الذي من
النادر جداً أن يدخله أحد ويخرج بعدها...فتاة لا ترغب
في الارتباط بأحد لأسباب لا يعلمها إلا الله ... ماذا

بوسعي أن أفعل بعد الذي سمعته ... تصورت أن تكون مخطوبة أو متزوجة، وسيكون النسيان بعدها أمراً لا مفر منه ... ولكن هذه الحالة الغريبة من المتاح غير المتاح، تشعرني بالتشتت والحيرة ... الكلام الإيجابي الذي وصفها عم صلاح به سبب لي المزيد من الألم ... ترى هل ستكون هناك فرصة في مستقبل قريب ما!!!؟ لا مفر من ترقب شيء ما قد لا يحدث حقاً.

ولكن هذا هو الأمل الوحيد المكتوب له الحياة ... تنهدت بعمق في خضم تلك الأفكار التي أخذت تنهش روحي بلا رحمة.

على أنه كان هناك نوع آخر من الحيرة الممزوجة بالغضب، أخذت تعتمل في نفس داوود الذي جلس

على سريرته يفكر في المشكلة الكبيرة التي تسبب بها،
وأصابت سكان المبنى كله بالأذى.

كان قد عرض مراراً وبكل قوة أن يسلم نفسه إلى
أولئك المعتصمين خارج المبنى لينهي المسألة،
ولكنه جوبه برد فعل عنيف من رفاقه، وحازم من
المشرف ... لن تنتهي المشكلة إلا بفضيحة إن فعل
ذلك، وما كان لرفاقه أن يتركوه وحده مهما كان الثمن
... ولكن ما الحل!!؟ كان يشعر بمسؤولية كبيرة تجاه
ما حصل، ويؤمن تماماً أن الحل يجب أن يأتي به هو
لا غيره ... أخذ يذرع الغرفة بسرعة وتوتر وهو يفكر بلا
جدوى ... أمسك هاتفه وأخذ يقلب في محتوياته بلا
هدف، محاولاً إشغال نفسه بشيء ما ... كان يفكر في
مغافلة الحراس والتسلل خارج المبنى وتسليم
نفسه لينتهي الأمر ... لم تكن من شيمه الاختباء

كالخائفين ... ماذا سيقول الناس عنه الآن ... لابد من تسليم نفسه وليكن ما يكون بعدها ... فجأة لمح رقماً ما وأشرقت أساريره بعد ذلك ... هذا هو الحل لكل هذا بالتأكيد ... طلب الرقم، وعندما سمع الصوت في الطرف الآخر يتساءل عما هناك، قال له:

- أنا داوود أيها الأحمق، ألم تتذكرني بعد !!؟ أريد منك خدمة اعتبرها ديناً في رقبتني ... ما حدث هو الآتي.....

في عصر ذلك اليوم، بدأ المشهد الختامي بالحدوث ... كانت سيارات الشرطة قد انسحبت واختفى المعتصمون والمدافعون تماماً ... وفي حديقة المبنى اجتمع أناس معينون ... بضع بذات أنيقة مهمة مع عدد من الصحفيين والمصورين على حين وقف داوود بجانبه وهو يحمل باقة ورد.

كنا نقف على مسافة قريبة منهم نراقب ما سيحدث ... بعد انتظار، توقفت سيارة أمام باب المبنى ونزلت منها ريتا ومعها فتاة أخرى فقط ... اقتربت ريتا منهم لبضع خطوات ثم توقفت... سار داوود حتى وقف أمامها ثم جثا على ركبتيه وقدم باقة الورد بكلتا يديه ... كانت هذه هي الطريقة الشعبية هنا لكي يطلب الشاب الصفح من الفتاة التي آذاها ... لو أخذت باقة الورد سينتهي كل شيء، وإلا فالويل له ... تجمد المشهد لثوان ثم مدت ريتا يدها، وأخذت الباقة، وأمسكتها بيدها اليسرى وأمسكت بيدها الأخرى يد داوود وجذبتها ... استجاب داوود لها ووقف فطوقت رقبتة بذراعيها وبدأت بالبكاء تجمد المشهد مرة أخرى، ثم انطلقت عدسات المصورين وأصوات التصفيق والتصفير، وأخذ عم صلاح يضرب كفاً بكف،

على حين أخذ طارق يضحك وهو يهز برأسه عابثاً
بلحيته ... وبينما كان العاشقان يركبان العربة ليذهبا
إلى مكان ما، ليحتفلا غالباً بعودة الالتهاب إلى
أحاسيسهم المرهفة، كان سكان المبنى يتحركون في
مرح نادر وضحكات متناثرة هنا وهناك ... هزرت
رأسي وأخذت أتنهد في ارتياح شابته بعض الكآبة ...
كدت أستدير لأعود لشقتي عندما لمحت شاباً أسمر
عريض المنكبين، كان يتأمل ما يحدث في فضول،
وعندما لاحظ انتباهي له اقترب مني وسألني:

- تبدو ملامحك عربية ... أريد أن أسألك لو
سمحت عن شخص يدعى: زياد هزاع ... هو
يسكن هنا وفق الموقع الذي أرسله لي سابقاً،
ولكنه حالياً خارج التغطية لسبب ما ...

مد يده، وهو يقول مبتسماً:

- المعذرة، نسيت أن تتعارف ... أنا مثني خالد
صيدلي قادم من أوطان مختلفة.

صافحته، وأنا أبادله الابتسام قائلاً:

-أنا رحمي فؤاد، مصمم إعلاني... لنقل أنني من هذا
المبنى تحديداً.

- هذا نوع مريح من الانتماء.

كانت عيناه صريحتين وملامحه موحية بالثقة ...
لذلك تابعت كلامي:

- لا تقلق، بالنسبة لصديقك فغالباً هو مقيم
هنا، ولكن قبل أن نبحت عنه من بين الأمم
المستأجرة ستكون ضيفي.

قال بحرج:

- لا أريد مضايقتك، فقط دلني على الإدارة.

- لا، لا توجد أية مشكلة ... بالنسبة للإدارة، هي مشغولة الآن بالحصار الذي كان مفروضاً على المبنى هنا.

- حصار!!؟

- نعم، بالمختصر صفقة تسببت لنا بمشاكل عديدة لكن لا تشغل نفسك بذلك الآن ... لنصعد الآن إلى شقتي، وسأقص عليك كل شيء.

ممسكاً ببعض متاعه لِأُعينه، سرنا أنا وهو متجهين إلى داخل المبنى بهدوء.

ابنة القمر

خلال سنوات الحياة، نتعرف على كمّ متنوع من البشر منهم من يظل باقياً حولك لفترة طويلة ومنهم من يمر بشكل عابر ... منهم من لا تتمنى أن تقابله مرة أخرى ممثلاً لك ذكرى كريهة لا أكثر... ومنهم من لا تتصور الحياة بدونه ... لكن هناك نوعية معينة من البشر قد لا تصادفها البتة..

وإن حدث ذلك، سيكون غالباً مع عدد قليل منهم لا يتجاوز أصابع الكف الواحدة.. وكان مثني واحداً منهم ... في شقتي، كان الطعام مفروشاً أمامنا على الطاولة، والتلفاز يعرض أشخاصاً يصرخون في حماس، وبرغم ذلك لم أعط كل هذا أي اهتمام ... كان مثني حگاءً

من الدرجة الأولى، ولا يسعك أمام ما يقصه عليك إلا الاستماع بتركيز وترقب ... كان بارعاً في السرد بطريقة مذهشة تصيبك بالإدمان على الإصغاء للتجارب العديدة التي مرت عليه في سنوات دراسته في روسيا وفي البلدان الأخرى التي قضى فيها سنوات عديدة من حياته ... في النهاية، تنهد وهو يأخذ رشفة طويلة من كأس الشاي، وقال:

تعبت من المرات التي بدأت فيها من جديد ... نويت العودة إلى روسيا والبدء بشيء ما ... قد أعمل في التجارة، وقد أفتتح مطعمًا صغيراً لوجبات السمك على ساحل سوتشي ...

فعلياً، كنت ذاهباً إلى هناك لولا العاصفة الثلجية التي أجبرت الطيار على تغيير مساره والهبوط هنا ... بجهد كبير سمحت لي إدارة المطار بالخروج بفيزا مؤقتة ...

لا أطيق الإقامة في قاعة الانتظار ... قلت لنفسى: هذه
فرصة لكي أقضي بعض الوقت مع صديق قديم
يقيم هنا ... زياد هزاع الذي سألتك عنه والذي أتعبني
بهاتفه الخارج التغطية ... كان يجب أن أتأكد من
ظروفه قبل أن أخرج من المطار.

هزرت يدي نافياً، وقلت له:

- لا تشغل بالك بذلك ... اعتبرني أنا صديقك
زياد وكفى ... أنت ضيفي الآن يا عزيزي مثنى.

ضحك ضحكة خفيفة، وقال:

- على عيني ورأسي أخي رحمي ... جزاك الله
خيراً، لولاك لاضطرت للرجوع الى المطار
والانتظار على غرار توم هانكس في فيلم The

... terminal ربما اضطرت مثله للاستحمام

في المغاسل أيضاً.

ثم أمسك هاتفه، قائلاً:

- لنجرب هذه المرة أيضاً ... إنني قلق عليه حقاً

و ... إنه يرن الآن ... ألو، السلام عليكم، أتعبتني

معك يا رجل...

وبداً في حديث متتابع معه ... أحاديث الهاتف تلك

التي تسمع فيها طرفاً واحداً فقط دون أن تفهم شيئاً

... بعد دقائق، أنهى مثنى المكالمة، وقال بخيبة أمل:

- أخبرني أنه مسافر مع والدته لمدينة أخرى بعيدة إلى

حد ما... مسألة خطبة وزواج ... والده فقط من بقي

وهو مقيم في الشقة رقم ثلاثين ... في أي طابق هي يا

ترى ؟

- في الطابق الثالث ... سأذهب معك حتى الباب
لأطمئن عليك.

- لا داعي لذلك، لقد أتعبتك معي حقاً.

- لا تقل ذلك، وعموماً قد لا يكون في الشقة..... هذا
وارد

بعد دقائق، كنا أمام الشقة رقم ثلاثين ... بعد أن قرعنا
الباب عدة مرات تأكدنا من عدم وجود أحد...

- تحقق ما افترضته ... لنعد إلى شقتي ... أنت
ضعيفي الآن حتى تقلع طائرتك.

بعد ساعة تقريباً، دق هاتف مثنى ... فتح مكبر
الصوت فأتاه صوت صديقه خالد يقول بجزع:

- متأسف جداً يا مثنى ولكن أبي تعرض لحادث
سيارة، وهو الآن في المشفى الحكومي العام
... أرجوك اذهب إليه، فلا يوجد أحد لنا بقربه
غيرك الآن.

- لا تقلق، سأذهب وأطمئنك عنه.

أنهى مثنى المكالمة، وهو يهز رأسه في حيرة وخجل،
فقلت له بسرعة:

- المشفى ليس بعيداً من هنا ... لنذهب إليه
الآن.

على باب الغرفة تأملنا الراقد على السرير وقد لف
رأسه بضماد سميك هو ويده اليسرى.. مغمض
العينين يتنفس بانتظام ... ماذا نستطيع أن نقدم له..
سيفتح عينيه في لحظة ما وسيشاهد غريبين أمامه..

ماذا سيمثل هذا له؟! لا شيء، طبعاً.. فكرت أنه من الأفضل له في هذه الظروف أن يستيقظ ولا يرى أحد .. جلسنا على أريكة صغيرة مقابل باب الغرفة المصنوعة من الزجاج وأخذنا نتبادل بعض الأحاديث المختلفة .. حكى لي عن رحلة قام بها عندما كان في روسيا إلى أقصى الجنوب الغربي قريباً جداً من الحدود الصينية، حيث كان الروس هناك أشبه بالصينيين هم وبيوتهم أيضاً.. كان أول عربي تطأ أقدامه أرض البلدة هناك.. عندما عرف صاحب الفندق هويته طلب منه أن يلتقط معه صورة ليضعها خلف مكتب الاستقبال، كعادته عندما يأتي للفندق نزلاء فوق العادة.. هكذا أخبره وهو يقدم له ليلتين مجاناً كهدية.. وأخذت تلك العجوز التي قابلها في الفندق تقرصه عندما علمت أنه عربي.

بتعجب قالت: أنّ أجدادها أخبروهم أنّ العرب
عمالقة يأكلون اللحم البشري، وأنّ الساموراي
أنفسهم لم يقووا عليهم عندما جاؤوا في يوم ما
ناشرين الإسلام في المنطقة.. فكيف تقول أنّك عربي
ولست عملاقاً وجلدك ليّن قابل للطعن!!

كنت جالساً بجانبه أصغي بانتباه، وقد فقدت
الإحساس بالزمن حتى نبهتنا الممرضة أن المصاب
قد بدأ يعود لوعيه... دخلنا الغرفة وتأمّلنا الرجل الذي
أخذ يئنّ وهو يحرك رأسه يمنة ويسرة ثم فتح عينيه،
وأخذ يتكلم بكلمات غير مفهومة... أصغينا بانتباه
أكثر... لم يكن يتحدث العربية إنما لغة أخرى لم
أُتّبينها... هل يا ترى أخطأنا في الغرفة، وهو ليس
مريضنا؟؟ همست بذلك لمثنى الذي هز رأسه قائلاً:

- لا، إنه أبو زياد فعلاً، صحيح أن ملامحه تغيرت
بحكم السنين ولكنه هو بلا شك.

- إذا كان هو، فلماذا يتكلم بهذه اللغة غير
المفهومة!!؟

- إنه يتكلم الروسية، وهو يعرفها؛ لأنه درس في روسيا
مثلي تماماً... يبدو أنه مصاب بفقدان ذاكرة جزئي من
جاء الحادث.

- وماذا يقول إذن ؟

صمت مثنى قليلاً، ثم قال:

- يسأل عن ماريا ...

- ومن هي ماريا هذه ؟

- لا أدري، ولكنه يلحّ بسؤاله عليها بشدة.

عاد الكهل ليتمتم ببضع كلمات، واستطعت هذه المرة تبين اسم ماريا من بينها، فرد عليه مثنى بنفس اللغة، زادت بعدها عصبية الرجل وأصابته نوبة هياج، أسرع بعدها الممرضة وحقنته فبدأ يهدأ حتى خلد للنوم، ثم طلبت منا المغادرة ... سألت مثنى عما حصل: فأخبرني أنه عاد وسأل عن ماريا، ورد عليه أنهم أخبروها ولم تأت بعد، فقال له بغضب: أنه كاذب، وأنها لو كانت تدري ما حصل معه لهرعت إليه من دون تأخير، ثم قال:

- لا فائدة من البقاء معه الآن ... لنذهب لتناول

العشاء ولنرى ما سيحدث بعدها.

جلسنا في المطعم الملحق بالمشفى، وطلبنا وجبة خفيفة، وعدنا لتبادل الأحاديث ... كانت تلك المرة الأولى التي أكسر فيها روتين يومي بشكل كامل منذ

وصولي إلى هذا البلد، ولم أكن منزعجاً لذلك أبداً ...
كنت أفكر بذلك الرجل الراقد في المشفى سائلاً
بالحاح عن ماريا ... وعن الحادث الذي أنساه لغته
الأم.

ما القصة يا ترى!!؟

تأملت مثني وهو يتحدث ... تمنيت لو كان يعيش في
المبنى وليس مجرد ضيف عابر ... ترى هل هو أحد
أصدقاء الكاتب أم هو شخصية خيالية من بنات
أفكاره مثلي تماماً؟ ... أصابني هذا التساؤل بنفور
شديد ... لم أرتح لوصف نفسي بالشخصية الخيالية
ولا أعد نفسي كذلك ... ابتلعت ريقى وعدت لتركيز
انتباهي على ما يقوله ... كان زياد يتصل به كل فترة
وأخرى ليطمئن على والده، وكان مثني يجيبه من
دون ذكر قصة ماريا تلك ... لن تكون أم زياد سعيدة

عندما تسمع بأن هناك ماريا في الموضوع ... كان هو
وأمه على طريق العودة ... أكملنا شرب الشاي ومن
ثم نهضنا وعدنا إلى غرفة والد زياد.

وجدناه هادئاً هذه المرة يتأمل الفراغ حوله في شرود
وقد اعتدل قليلاً في استلقائه ... عندما حيّناه وأخبرناه
بهويتنا، رد علينا بالعربية هذه المرة ... لقد بدأ
يستعيد وعيه فعلياً ... هذا جميل... جلسنا على
الكرسيين الوحيدين في الغرفة الزجاجية الصغيرة،
وأخذنا نتصرف كأى اثنين يعيدان مصاب في

حادث لا نعرف عنه شيئاً ... أخذنا نفكر في عبارة نبدأ
فيها حديثاً ما معه، ولو كان فارغاً ومليئاً بالافتعال ...
ساد الصمت لدقائق، وبعدها خرجت تلك العبارة منه
هو بعد أن حرّك فمه الجاف، وسألنا:

- قالت لي الممرضة أنني كنت أهذي بلغة ما،

ربما الروسية ... ما الذي جرى بالضبط ؟

تنحنح مثني بحرج، وقال له:

- لا شيء يذكر، يا عم أبو زياد ... كنت تتألم ولم

أبين معظم ما قلت.

حدق فيه أبو زياد بنظرة طويلة، ثم قال:

- أنا أعرفك منذ كنت صغيراً ... صريح ولا تخاف من

كلامك ... قل لي الحقيقة.

- لا شيء مهم حقاً، يا عم أبو زياد.

- قل لي الحقيقة

عاد وكرر بحدة:

صمت مثنى لثوان، ثم حكى له بكلمات سريعة ما
جرى...

بعد أن انتهى، سكت أبو زياد قليلاً ثم انخرط في بكاء
حار...

أصبنا بحالة من الجمود إزاء ردة فعله غير المتوقعة
... كان ينتحب وهو يغطي عينيه بيده اليسرى ...
شعرنا بحرج دفعنا للخروج من الغرفة والوقوف
بعيداً في آخر الممر ... مضت عدة دقائق ثم سمعناه
يناديننا ... أسرعنا إليه ... كان قد استعاد هدوءه
السابق، وإن كانت هناك بقايا دموع تلتمع تحت
عينيه المنهكتين ... أشار لنا بالجلوس وقال:

- معذرة إن سببت لكم أي نوع من الحرج
وممتن جداً على اهتمامكم بي ... لقد تكلم

معي زياد وبعد حوالي الساعتين سيكون هنا
إن شاء الله ... ولا شك أن لكم مشاغلكم ولا
أريد أن أثقل عليكم.

إخلاء سبيل مهذب ... يبدو أن أبو زياد محرج جداً مما
جرى ولا يريد أن يبقى الشهود أمامه ... لكن بدا لي أن
الانصراف من دون معرفة من هي ماريا سيكون أمراً
لا يحتمل ... سيظل الفضول ينهش بي كلما تذكرت
هذه الليلة، ولن يهدأ عقلي أبداً عن البحث عن حكاية
لا يعرف عنها أي شيء.

لذلك سألت فجأة وبشكل مباشر:

- من هي ماريا يا عم أبو زياد ؟

رمقنا بعدها أبو زياد بنظرة حادة طويلة على حين نظر
لي مثني بنظرة عتاب جانبية، وأطرقت أنا بخجل.

- لا عليك يا رحمي ... أرى سؤالك مشروعاً
وأشعر أني ملزم بتوضيح الحكاية ... على الأقل
لكي لا أضع ما جرى بين التكهّنات والظنون
علاوة على أنه لا يوجد شيء أخجل من ذكره...
هذا سري الذي احتفظت دائماً به داخل خزانة
محكمة في قلبي ... ويبدو أنه لا مفر من التكلم
على الأقل من أجلها ... ما أطلبه منكم هو
التزام الصمت أثناء ما سأقوله، والتزام
الصمت بعده أيضاً ... لأنه عندي أقدم من
أن يصبح حديثاً يقال خارج هذه الغرفة ...
أرجو احترام رغبتني هذه .

هزنا رؤوسنا موافقين.

وبدا أبو زياد بالتكلم بصوت واهن:

كان عام 1985 عاماً مختلفاً بالنسبة لمواطني الإتحاد السوفياتي...

هكذا شعر الجميع وقتها ... كان غورباتشوف قد أصبح أميناً عاماً للحزب الشيوعي ... وبدأ يتحدث عن السياسة والاقتصاد بكلام لم يسمعه الناس هناك من قبل ... بصعوبة بدأت كلماته تسري من بين طبقات الخوف المتراكمة منذ أجيال عدة.

وبالنسبة للإنسان السوفياتي الذي كان يبتعد عن الهاتف عدة أمتار كلما أراد التكلم عن أمور معينة؛ لأنه واثق تماماً من كونه جهاز تنصت ... كان معنى أن يتم الحديث عن هذه الأمور في العلن ولو بشكل خافت جداً أن هناك شيئاً ما سيحدث ... لا يعرف متى ولا يريد التفكير بهذا لأن الخوف الحاصل لن يكون محتملاً...فيما بعد ستتغير أمور كثيرة ولن

يعود الإنسان السوفياتيُّ سوفياتياً حتى ... ستحدث
أمر محزنة وأخرى مبهجة كثيرة ... ما يشبه الحرية
المخضبة بالكثير من المآسي والويلات، لكن هذا
لحسن الحظ ليس حديثنا الآن.

كنت في ذلك الوقت أعيش في إحدى القرى القريبة
من مدينة نوفوسيبيرسك ... شاب عربي لا يكف عن
الاندهاش من الاختلافات الكبيرة بين المكان الذي أتى
منه وبين المكان الذي يعيش به حالياً، ولا يكف عن
الشعور بالبرد واعتبار الشتاء جحيماً أبيض اللون، ولا
يكف عن الحذر والعناية بكلماته، وهي موهبة
اكتسبها في موطنه الأصلي وأفادته جداً هنا ... اغلق
فمك تعش غالباً آمناً.

هذا هو أسلوب الحياة هنا، بالإضافة أنهم يعطون
الناس ما يكفيهم ليعيشوا فقط ولا طموح آخر متاح

... لم أكن أحب التفكير كثيراً بهذا الأمر ... إن هي إلا
بضع سنين دراسية سأقضيها هنا، ومن ثم أعود إلى
بلدي الذي هو مسح غير شرعي من أب اشتراكي
وأم رأسمالية.

كنت أدرس العلوم الكيميائية في جامعة
نوفوسيبيرسك الحكومية... وأقضي أيام السنة ما
بين السكن الجامعي القريب من الجامعة وما بين
البلدة التي تبعد حوالي الساعة عن هناك... لم أحب
العيش في المدينة أبداً ... ستزداد هناك غربة
وستعامل كغريب طوال الوقت ... بخلاف البلدة التي
يكفي أن يعرفك فيها أعضاء اللجنة المنطقية للحزب
لتصبح شخصاً مرغوباً به ... كانوا يعرفون البلد الذي
أتيت منه، ويعتبرونه صديقاً للاتحاد السوفيتي، وهذه
أحد الإيجابيات القليلة بهذا الصدد ... عشت في غرفة

صغيرة مخصصة للآجار، ملحقة ببيت تسكنه عائلة صغيرة ... أم عجوز وفتاة تدعى ماريا ... كانت تدخل للغرفة في أوقات غيابي لتنظفها ... تأخذ الملابس المتسخة وتعيدها نظيفة ومكوية ... كان يشير هذا الفعل استغرابي فلا يوجد في عقد الإيجار أي نص يجبرهم على ذلك ... سألت ماريا؟ فقالت لي وهي تبتسم:

- لديك عائلة في بلدك ستكون سعيدة عندما تعرف أن هناك من يعتني بك.

مات والدها منذ سنوات ... كان مسؤولاً في اللجنة المنطقية ... استيقظ ذات صباح وارتدى ثيابه وخرج إلى مكتبه ... رأى الناس جثته فيما بعد على جانب الطريق ... قيل لهم أنها أزمة قلبية... لم يبق للعائلة سوى راتبه التقاعدي وآجار الغرفة التي أقيم بها.

متى بدأت أحب ماريا؟؟

هذا سؤال صعب الإجابة ... حقيقة لا أدري حقاً متى ... ليس الأمر ضغطة زر حدثت في وقت معين ... لقد وجدت نفسي فجأة أحبها ... لا أدري حتى إن كانت كلمة حب قادرة على وصف ذلك الشعور ... طريققتها الأقرب للأمومة معي كانت كافية لكي أحبها ... كلماتها المرححة الطريفة ... تعاملها البسيط مع الحياة رغم يتمها وضيق ذات اليد ... كل ذلك كان كافياً جداً لكي أحبها ... أما جمالها فذلك أمر آخر...

هناك أصناف متعددة للجماليات ... منهن من يقضين الساعات في التزين والتعطر وارتداء الملابس، تظهر بعدها ملامح جمال مؤقت ... منهن من يبدن جميلات بسبب أعينهن وحدها أو وجوههن بشكل عام دون بقية التفاصيل ... ما بين جمال جامد

وارتسامات بعينها كشكل الابتسامة أو تسريحة الشعر أو كثافة الأهداب.

ابتسامة إغواء وأخرى بريئة ... هناك أشكال مختلفة للجمال، ولكن ماريا لم تكن تنتمي لأيّ مما ذكرت ... كانت ساحرة في أي وقت وفي أي مناسبة ... سواء أكانت أفاقت للتو من نومها أو تستعد له ... لم تكن ماريا تملك من أدوات الزينة أو الملابس إلا القليل جداً، ولكنها كانت جميلة بما يكفي لكيلا تكون بحاجة لها ... تلك الروعة التي ستشوهها أي إضافة صناعية ... حتى الفقر لم يستطع أن ينال من كل هذا البهاء ... بثيابها البسيطة، وابتسامتها الخلابة، وعيونها التي تموج بالملاحة، كانت تصنع حلماً جميلاً يجعلني أفقد الشعور بأي شيء، وتدفعني لنسيان أي ما كان سواها ... حتى عندما انزلت قدمها أثناء عودتها

للمنزل خلال يوم ماطر، كانت تبدو كحورية نبتت من
الطين ... كانت تضحك وتقول لي:

- هل يسمح لي أعضاء اللجنة المركزية في
الحزب برفع شكوى ضد كل هذا الطين! ؟

أسكتها، وقد خشيت أن يسمعها أحد ما ... عادت
للضحك وهي تدخل للمنزل ... كنت أتأملها وهي
تغيب ... حواء أخرى بدت كأنها خلقت توأ.

في تلك الليلة، قالت لي وهي تسرح أسفل شعرها:

- لماذا تنظر لي هكذا كالأبله دوماً؟؟

اضطربت ولم أدر ما أقول، وأخففت عيني في خجل
... ضحكت بعدوبة، ثم قالت لي:

- أتعلم ... لو مر يوم ما لم تنظر لي كالأبله فيه،
سأضطر لاقتلاع عينيك ووضعهم في نفس
الوعاء الذي تضع فيه أمي طقم أسنانها.

في ليالي الصيف ... كنا نسير على مهل في طرقات
البلدة ونتكلم بأحاديث شتى ... كانت تحلم باليوم
الذي تذهب فيه للعيش في المدينة.

- سأسكن في بيت في الضواحي ... بيت جميل بمطبخ
ليس خرشوفي ... شرفة مليئة بالورود ... ارتياد
السينما ... الشوارع والمارة المتغيرون بعيداً عن ملل
البلدة ... هنا أستطيع أن أخبرك ما سيحصل حتى
المئة سنة القادمة.

- سأصطحبك أنا إلى هناك...

- لا أتحدث عن زيارة قصيرة يا أحرق ... أتحدث عن حياة كاملة.

- أنا أيضاً أتحدث عن حياة كاملة أريدك أن تكوني ملكتها.

ضحكت بدلال خجل، وقالت:

- هل ستأخذني أسيرة حرب كما كان يفعل أجدادك ؟؟

- سأزوجك أميرتي وسأكون أنا أسيرك.

رمقتني بنظرة حنان عميقة وسألتني:

- الآن فقط أم للأبد ؟؟

- لم أفهم سؤالك؟

- ستحبني للأبد أم ستصب عليّ اللعنات بعدها كما يفعل الجميع؟؟

- فلتصب اللعنات عليّ أنا لو تجرأت.

ونغرق في صمت صاحب بالكلمات والتنهدات.

أحياناً، كنا نذهب للسور المتهمم الواقع في التلة المشرفة على البلدة ... كانت تحب كثيراً الذهاب إلى هناك ... سألتها مرة عن السبب، فردت بشرود:

- في طفولتي، كنا نأتي أنا وأختي إلى هنا في آخر ساعات النهار، ونجلس على السور، ونتكلم عن أحلامنا التي تماثلنا في السن... سكن جميل وبيانو وطعام طيب لا ينفذ ... كنا دائماً قريبين جداً من الأرض، لذلك أردنا أن نرتفع ولو قليلاً ... أن ننظر للأشياء من أعلى ... كنا

نشعر بالخواء والملل دائماً ... وبالخوف ...
الكثير منه ... تزوجت أختي وسافرت إلى
موسكو ... آلاف الكيلو مترات ... وبقي السور
الذي تهدم أكثر ... صار ذهابي عصراً إلى هنا
مليئاً بالدموع ... فقدت صديقة طفولتي وصار
الكلام ذكرى.

كنا جالسين فوق السور، نتأمل البلدة الهامدة أمامنا
المكسوة بلون القمر ... هذا اللون الذي لا أدري أهو
من القمر أم من ابنته الجالسة بجانبني ... أقترب منها
كالمسحور فتقول لي بسرعة:

- اصح أيها البائس ... هل يرضيك أن تفعل هذا
بزوجتك.

أترجع في وجل ... خشيت أن تغضب ولا تكلمني
بعدها ... لم أعد أدري ما أقول.

ولكنها أمسكت بيدي وقالت:

- لا تحزن، سأكون لك إلى الأبد ... اصبر فلا
أريدك أن تتزوج بمن ليست عذراء.

تعيدني كلماتها إلى صوابي ... كان من الشائع هنا أن
تظل الفتاة عذراء حتى تتزوج أو لسن متأخرة ...
عادات الريف الروسي... نبتسم وننهض ونعود
صاحكين إلى بيوتنا.

كنت أسابق الأيام وأنهش الكتب والمقررات نهشاً ...
لا مجال لأي فشل ... فقط عندما أتعب كنت أرفع
رأسي عن الكتب قليلاً، ويشع في قلبي وروحي ذلك
الضوء الأزرق البهي القادم من ابنة القمر.

قالت لي في ذلك المساء:

- سأسافر إلى بريبيات الشهر القادم ... سأدرس
التمريض هناك لستين...

ساد صمت ثقيل بعدها ... كنا نسير عائدين من
وسط البلدة بعد شراء بعض الأغراض ... قلت لها
بصوت مبحوح:

- أتقصدين تلك المدينة في أوكرانيا!؟

- نعم، هناك.

- لكن ... لكنها بعيدة جداً، وأنت فتاة فكيف...

قاطعتني بهدوء:

- هنالك سكن للطلاب هناك ... لا تقلق.

ثم سكنت قليلاً، وقالت:

- لا مفر من ذلك أيها العزيز ... إذا أردنا أن نعيش في المدينة فلا بد أن نعمل سوية ... لا أريد أن أحمل العوز في أمتعتي وأذهب لهنالك ... أريد حياة باسمه ... سئمت من تلك المتجهمه التي عشتها.

أردت أن أتكلم، ولكن غصة أليمة منعت خروج الكلمات من صدري ... مع تلك الصدمة التي اعتصرت فؤادي؛ لم أعد أقوى على الكلام أساساً ... أطرقت في حزن ثم رفعت أنظاري إليها ... كانت تتأملني بحنان ثم أمسكت بيدي، وقالت:

- صدقني لا خيار آخر لدي ... هذا ما كتب على اللائحة، وعدم ذهابي معناه فرصة وحيدة ستضيع للأبد ... عندما تعيش هنا أيها العزيز فسيكون عليك ألا تضيع أي فرصة من فرصك المعدودة ... ستمر السنتان

بلمح البصر كالعادة ... غالباً ستكون قد تخرجت أنت
أيضاً.

- لن أدعك تحتاجين لشيء ... أعدك بذلك ... لكن لا
تذهبي.

نظرت لي بعينين صافيتين وهمست:

- هل سأبقى في قلبك للأبد ؟

- لا معنى لنبضه من دونك.

تلاقت عينانا بنظرة طويلة...

كانت تقف أمامي خلاصة ومتلازمة وحزينة، ضغطت
على يدي مشجعة تحثني على متابعة السير

.....

خلال الأسابيع التالية، بدأت تتتابني أعراض معينة أثارت التساؤلات من حولي ... ألح عليّ العديد من الأصدقاء لمراجعة أحد الأطباء، وكنت أرفض بشدة ... لكن في تلك الليلة كنت في البلدة، أقف داخل المتجر لأشتري بعض الأغراض عندما سقطت فجأة ... حملني صاحب المتجر وألقاني في الوحدة الصحية كنوع من إخلاء المسؤولية ... كما تعلم لا أحد يحب الشراء من متجر لا يسعف زبائنه المغمى عليهم ... نزع الطبيب ميخائيل العجوز نظارته، وقال لي بابتسامة رصينة:

- أنت تعاني من متلازمة نقص ماريا.

كنت أعلم هذه الحقيقة منذ زمن ... لكنني استغربت من دقة تشخيصه ... عموماً، عندما تعيش معظم

وقتك في بلدة صغيرة ستكون مراقباً حتى في أعتى
الدول الديمقراطية.

- سأكتب لك بعض المقويات ... يجب أن
تعتني بنفسك جيداً ... النساء هنا لا يحببن
الرجال الذين يغمى عليهم في المتاجر.

شكرته بهدوء وغادرت الوحدة الصحية ... لا يوجد في
الدنيا سوى علاج وحيد لمتلازمة نقص ماريا،
وبالتأكيد لا يوجد عند الطبيب ميخائيل ولا غيره.

وصلت إلى بريبيات بعد سفر اسبوع في القطار ... وفي
المشفى المركزي هناك كانت تقف ماريا مع عدد
من أقرانها، متكومين حول دكتور ملتصق بجانب
سرير أحد المرضى، ولا يكف عن الكلام ... تأملتها من

بعيد، وهي تصغي بانتباه مع عينيّن تتسعان أحياناً
... قاومت بقوة رغبتني في أن أقّحم الغرفة...

بعد برهة، انتهت المحاضرة وخرجت مع البقية ...
عندما رأّنتني سقط الدفتر من يدها، وصاحت بفرح
ودهشة:

- ما الذي جاء بك أيها البائس!!

- متلازمة نقص ماريّا.

شرعت تضحك باستغراق، ثم قالت وهي تمسك
ذراعي بدلال:

- لنذهب ونبحث عن سور نجلس عليه

.....

في تلك الليلة دق جرس الهاتف بإلحاح ... كنت جالساً
أقرأ أحد المراجع عندما رفعت سماعة الهاتف ... كان
الطبيب ميخائيل على الطرف الآخر...

- لقد عادت ماريا منذ ساعتين.

قالها بطريقة غريبة ... شعرت بتوجس ... لماذا يتصل
بي ليبلغني بذلك وهو ليس قريباً لها و.....

- تريد أن تراك ... تعال بسرعة.

وضعت السماعة من دون نقاش، وأسرعت إلى
البلدة.

عندما دخلت للمنزل رأيت ماريا تجلس على الأريكة
... كانت شاحبة جداً وقد نقص وزنها بشكل ملحوظ
... أشارت لي بالجلوس بجانبها ... لاحظت أن أمها

والطبيب ميخائيل يجلسان في الطرف الآخر في وجوم،
وقد تجمدت دمعة في عينيّ أمها.

بدأت ماريا في الكلام بصوت واهن:

- حدث شيء ما في مفاعل تشرنوبل ... قالوا لنا
أنه مجرد حريق تحت السيطرة ... ذهبنا مع
سيارات الإسعاف وأخذنا من هناك الكثير من
الموتى والمصابين ... بعدها قالت طبيبة
صديقة لي: أن دكتورة في الفيزياء أخبرتها أن
جهاز الرصد عندها يشير لمستوى عال
ومستمر من الإشعاع ... وأن الدلائل تشير أن
مفاعل تشرنوبل تعرض لأكثر من مجرد
حريق ... شعرنا بالخوف الذي دفعنا للهرب ...
أخذت زوجها وعائلتها وبالكاد وجدت لنفسي
مكاناً معهم و...

وفجأة تقيأت ماريا وأخذت تسعل بعنف ... أصبت
بالهلع ولم أنتظر أكثر من ذلك ... خلال دقائق كانت
سيارة الأجرة تنهب الطريق نحو مشفى
نوفوسيبيرسك المركزي...

فحصها أحد أصدقائي الأطباء هناك، ثم صاح آمراً
مساعديه بوضعها في غرفة معزولة ... بينما هم
يدفعون سريرها ل هناك نظر لي الطبيب وقال:

- هل هي قريبتك؟؟

بلعت ريقى، وقلت:

- هي خطيبتى ... ماذا حدث لها؟

صمت الطبيب قليلاً، وقال:

- هذه أعراض تعرض لجرعة إشعاعية عالية ... قلت لي: أنها كانت قرب مفاعل تشرنوبل.

- نعم ... للدقة هي تدرس التمريض في مدينة بريبيات، وذهبت لهنالك بعد اندلاع حريق في المفاعل. صمت الطبيب طويلاً، ثم قال:

- دعنا نتكلم بصراحة ... لو عرفت إدارة المشفى بما حدث فعلاً ستبلغ القيادة مباشرة ... بعدها سيتلقون أمراً بالتخلص منها بهدوء قبل أن تثرثر أكثر.

خفق قلبي في رعب، وقلت له:

- يتخلصوا منها!! أرجوك افعل شيئاً وامنعهم من فعل ذلك.

أخذ يحك ذقنه، ومن ثم قال:

- هناك حل وحيد ... سأنقلها إلى أحد الغرف
المأجورة، وسأشرف على علاجها بنفسي ...
سيكلف هذا مبلغاً محترماً للأسف.

صحت برجاء:

- لا مشكلة عندي بهذا الصدد ... فقط لا تدع
أحداً يؤذيها.

هز رأسه، ثم تركني وخرج من الغرفة...

خلال الأيام التالية، كان لي خيار واحد فقط ... كانت
تكلفة العلاج كبيرة حقاً، ولا تستطيع ماريا دفعها ولا
حتى أنا ... ذهبت وبحثت عن عمل حتى وجدت
واحداً كسائق أجرة ليلي... ولم يكف الأجر الذي أخذت
أتقاضيه، فعملت أيضاً في إحدى مراكز التنظيف ...

أصبحت أقضي يومي بين الجامعة وبين العمل،
وبقي لي ثلاث ساعات على الأكثر للنوم ... تراجع أدائي
الدراسي حتى رسبت في السنة كلها ... كنت أخشى
النظر في المرأة، كيلا أصدم من ذلك الشخص البائس
متغضن الوجه الواقف في الطرف الآخر ... فقط عندما
أقف وراء الزجاج لأطمئن عليها، كنت أشعر بقوة
تدفعني لنسيان كل شيء سواها... شاحبة هزيلة
تبادلني النظرات من وراء الزجاج ... عيناها تقولان لي
ألف كلمة، وأنا أرد عليها بابتسامة مشجعة ... كنت
بحاجة إلى أن تمسك يدي مشجعة كما الأيام الخوالي
... كنت بحاجة لأسمع ضحكتها وكلماتها الساخرة
أحياناً، والحنونة دائماً ... ولكنها كانت بحاجة لي أكثر
... يجب أن تمضي في علاجها بأي ثمن حتى لو كنت
أنا هذا الثمن.

وفي صباح ذلك اليوم وبينما كنت أتجه مسرعاً لأمام
غرفتها رأيت صديقي الطبيب يقترب مني بتوتر...

تنحنح وقال لي:

- إنها تحتضر...

- تحتضر!!!

دارت بي الأرض بعنف وكدت أسقط ... أسرع وأعانني
على الوقوف ... أخذت ألهث بقوة ثم اتجهت لغرفتها
وأخذ يسير ورائي ... فتحت الباب ودخلت ... حاول
الممرض منعي، فأشار له بالتوقف...

كانت مغمضة العينين تتنفس باضطراب وقد ازرقَّ
ما حول عينيها ... أمسكت يدها ففتحت عيناها ...
عندما رأته ابتسمت بخفوت، وهمست:

- هل سأظل في قلبك إلى الأبد ؟؟

ارتجفت شفتاي، وقلت لها:

- حتى آخر لحظة من عمري ... سنذهب إلى

نوفوسيبيرسك ونعيش هناك ... سأخذك إلى

السينما في أيام العطل ... سنقيم في بيت

جميل وستكونين أنت ملكته إلى الأبد.

أمسكت يدي بكتا يديها ثم سعلت قليلاً ... نظرت

لي وهي تضغط عليهما بما بقي لها من قوة ... ثم

مضت

.....

أخذت أنشج بصوت خافت على حين التمعت عينا
مثنى في صمت...

قال أبو زياد بصوت مبحوح:

- بالكاد أكملت دراستي، وغادرت بعدها
الإتحاد السوفيتي، ولم أعد له من وقتها ...
كنت أزور قبرها كل أسبوع، وبعدها أذهب إلى
ذلك السور المتهدم وأجلس وأتأمل البلدة،
كنت أتخيلها تأتي وتجلس جانبي لتتألق كما
يجدر لابنة القمر أن تتألق ...

والآن وبعد كل هذه السنين، فأنا أتوق للذهاب إلى
هناك إلى تلك البلدة القريبة من نوفوسيبيرسك،
وأجلس على ذلك السور الذي لا بد أنه تهدم أكثر ...
إنها تنتظرني هناك لتحديثي عن بيتنا الجميل، وعن

الحكايات التي سنحكيها لبعضنا آخر الليل بعد سهرة
سنقضيهها نتمشى وسط المدينة أو نشاهد فيلماً في
السينما هناك ... ستسير بجانبى هائلة بديعة تنير
الطريق بنورها الأزرق الجميل وبضحكاتها وكلماتها
العذبة.

ساد الصمت لبعض الوقت ...

كنت أجلس متصلباً على الكرسي محاولاً منع
دموعي، وعقلي لا يكف عن استرجاع ما سمعته ...
فرق كبير بين أن تسمع حكاية ما بشكل عارض ومن
أن تسمعها من صاحبها ... لم أدر ما أفعله أمام كل
هذا الحزن ... لا المواساة تفيد ولا أي كلام آخر ... كان
مثنى هو الآخر صامتاً بادي الحيرة ... ارتفع صوت
رنين في الغرفة ... رفع مثنى هاتفه، وبدأ التحدث
بسرعة واقتضاب ... ثم قال:

- أخبروني أن طائرتي ستغادر خلال ساعة من الآن.

ثم اقترب من أبو زياد وقبل يده بلطف قائلاً:

- حقاً لا رغبة لي في المغادرة، ولكن لا حيلة لي ...
كنت أرغب برؤية زياد، ولكن يبدو أن لا قسمة لي بذلك.

ابتسم أبو زياد بإرهاق قائلاً:

- لا عليك يا ولدي ... سأبلغه تحياتك ... معذرة
إن كنت قد أزعجتكم بحديثي وممتن بشدة
لزيارتكم لي ... ستكون المرة القادمة في البيت
إن شاء الله.

ودعناه وخرجنا من المشفى ... ملأْتُ صدري بالهواء
الطازج وأخذت أتأمل الحركة القليلة في هذا الوقت
من الليل محاولاً طرد الكآبة من نفسي...

وجوه البشر تمر متتابعة من أمامي أثناء سيرنا ...
وجوه عديدة ملونة ... قلت لمثنى، ونحن نجلس
بسيارة الأجرة:

- مر الوقت بسرعة للأسف ... تعال في المرة
القادمة إلى هنا كزائر وليس كعابر ... سأنتظر
زيارتك لي دائماً وسأكون سعيداً عند ذلك.

ابتسم مثنى، قائلاً:

- كنت أرغب بمجرد زيارة سريعة لصديق لا
أكثر، ولكني كسبت صديقاً عزيزاً آخر ...

سنبقى على تواصل دائماً ... وسأزورك حتماً
لو قدر لي وأتيت إلى هنا مرة أخرى.

أمام باب الخروج ودعته بحرارة، وظللت أتابعه
بأنظاري حتى غاب.

عندما عدت إلى الشقة كنت أشعر بتعب شديد ...
استلقيت على الفراش، وأخذت أتأمل السقف في
شروود وقد بدت خيالات وشخوص ترتسم بفراغ
الغرفة ... تنهدت ولم أدر متى غرقت في نوم عميق.

عن الطابق الحادي عشر

فتحت عينيّ وأخذت أتأمل ما حولي في هدوء.. كان الوقت مبكراً والنهار مازال واعدّاً بأمور كثيرة، عليك أنت الاختيار فقط.. أن تمضيه في أحضان الروتين والملل أو أن تقوم بشيء ما مختلف.. قد ينتهي معك بنهايات متعددة، كأن تصبح ثرياً بضربة حظ ما، بعد أن يقرر أحد أقربائك الأغنياء.. لو كنت تملك واحداً.. أن يموت بعد أن يوصي لك بجميع أملاكه، ثم يغادر بسلام تاركاً لك جملة بما حمل.. قد ينتهي بك بكارثة ما تلقيك في السجن أو ما هو أسوء.. كجوزيف كي بطل رواية المحاكمة لكافكا الذي وجد

نفسه مداناً بجريمة لا يعلم عنها أي شيء، فضلاً عن أنه ارتكبها أصلاً.. هذا يحدث كثيراً هذه الأيام..

خيارات كثيرة يقدمها لك اليوم الطازج، كهذا اليوم الذي أتقلب فيه على فراشي من دون نية حقيقية لبدئه.. خصوصاً أنه لا يوجد لدي عمل ما مطلوب مني القيام به.. هذا من الأيام القليلة، والحمد لله، التي تخلوا من طلبات العملاء.. لذلك أستطيع أن أطلق عليه.. يوم عطلة.. هذا خبر سعيد حقاً.. شعرت أنه من الواجب القيام باحتفالية ما، لذلك نهضت بنشاط، وبعد دقائق كنت أعدّ إفطاراً شهياً لهذه المناسبة، وفتحت علبة الطعام إياها التي أخبئها لمثل هذه الأوقات.. وشغلت أغنية صباحية مريحة.

يوم صيفي هادئ مفعم برائحة الشمس ... أغمضت عينيّ محاولاً ملء قلبي بكل ذرة من هذا الشعور،

كما يمتص مدخن شره آخر نفس من سيجارته ...
نهضت بعد عدة دقائق ووقفت أمام المكتبة...

كانت الأرفف قد بدأت بالامتلاء ... أخذت أتحمس
أكعب الكتب وأنا أستعرض العناوين.. هناك العديد
منها ممن ينتظر التقاطه والبدء برحلة لمكان وزمان
آخر ... تجارب وانفعالات لن تتاح لك مطلقاً إلا عندما
تحتضن كتاباً في زاوية هادئة وتدق جرس الرحيل
خارج مفردات أيامك.

فعل القراءة الذي يفوق الوصف ... النمو البطيء
الواثق لإدراكك وإحساسك وطريقة تفكيرك.

وكما تختلف الكتب يختلف كتابها ... هناك من
يكتفي بتقديم كتاب إليك، ويعود بعدها بهدوء ليبدأ

واحدًا آخر ... وهناك من يصدع رأسك بالمقابلات
وحفلات التوقيع وما شابه.

التقطت رواية بقيت لي بضع صفحات على إنهاؤها،
وغرقت بها حتى آخر صفحة.. غالباً ما أظل شاردًا
لوقت غير قصير بعد نهاية كل رواية، أفكر في أحداثها
كمن يعتصر فمه ليشعر بالطعم الحلو لكوب العصير
الذي فرغ منه لتوه.. وقد يكون الطعم مرًا في بعض
الأحيان.

ولكنني لم أضع وقت يوم العطلة الثمين، فارتديت
ثياب الخروج، ونزلت لأتمشى في شوارع المدينة
الرئيسية.. وأنا لي مع السير في الطرقات ذكريات
حافلة تحمل مختلف أنواع المشاعر.. عندما كنت في
شبابي المبكر كان السير في الطرقات، وتأمل الحياة

والبشر، هواية يومية ثابتة، أهرع إليها بعد أن أفرغ من واجباتي اليومية من دراسة أو ما تلاها من عمل..

أحب على الأخص السير في الليل متأملاً الوجوه والشوارع المتعبة.. والقصص غير المكتملة التي تحدث أحياناً من حولي.. العبارات السريعة التي تسمعها أثناء مرورك بجانب السائرين قبل أن يكملوا سيرهم في الاتجاه المضاد.. تلك العبارات المثيرة للخيال، الحادة أحياناً، والرقيقة تارة أخرى، والتي تدفعك للتفكير حول الأسباب التي دفعت صاحبها لقولها..

الوجوه التي تقابلك والتي تكون ملامحها أحياناً أبلغ وأوضح من مئات الكلمات.. الساهمون أمام فاترينات المحلات بعيون تحمل تعابير الرغبة والاشتهاء والحسرة، تنتهي غالباً بهزة كتفين سريعة

تحاول إقناع صاحبها بالاستسلام لقلة ذات اليد
والحيلة.

الأيادي المنعقدة والابتسامات ونظرات الحب
الجانبية.. الوجوه المكفهرة المنذرة بالويل.. الوجوه
الضائعة التي تبحث بلا أمل عن خلاص ما.

كنت أحب السير وحدي زاهداً من أي صحبة بشرية..
السير بصحبة ما يرغمك على الانشغال والحديث،
فتضيع منك لحظات التأمل والأفكار المصاحبة لها،
وينتهي بك المطاف فجأة أمام منزلك سائلاً نفسك:
كيف انقضت الليلة بهذا الخواء؟! ولا ينولك من السير
سوى التعب ووجع القدمين لا أكثر.

كنت أحب السير وحدي، ولم أكن وحدي.. كان عقلي
يزدحم بشتى الخواطر والتساؤلات..

لم أكن وحدي.. كانت الشوارع وكان السائرون هم
أصدقائي.

بقيت ذكريات شوارع مدينتي الأصلية تطاردني
بإصرار.. ولم تغب عن أحلامي قط.. أراها مظلمة
بائسة خالية من سائريها، وأرى نفسي أتجول بها،
يسري فيّ التوجس والخوف، وتتناهى على أسماعي
أحاديث القابعين في منازلهم المظلمة هي الأخرى
والباردة.. أحاديث الخوف من المجهول القادم..
الشوارع التي باتت ممتلئة باحتمالات الموت، وروائح
الجثث، والأحلام المتعفنة.

انطلقت نغمة تنبيه من هاتفي فالتقطته وتأملت
شاشته.. كان عم صلاح يدعو أعضاء صالونه
للاجتماع بعد ساعة في منزله.. كان قد أنشأ مجموعة
على إحدى برامج الدردشة لذلك الغرض.. هكذا

يستطيع أن يعرف على وجه التقريب عدد الذين سيأتون إليه.

طفقت عائداً الى المبنى.. كان صالون عم صلاح يشكل لي قيمة كبيرة.. وكما قلت سابقاً، لم يكن صالوناً موسيقياً فقط بل كنا نتناقش به في شتى الأخبار، والقضايا العامة، وأحياناً الشخصية عندما يطلب أحد الحاضرين رأينا في مشكلة شخصية تؤرقه..

ولا بد أن عم صلاح قد بذل جهداً كبيراً في استبعاد أي شخص أو أمر قد يسبب مشكلة ما، ولا ألومه لو فعل ذلك فثقافة الحوار ظلت على طول التاريخ عملة نادرة، وأغلب الناس يمارسون بدلاً عنها ثقافة الصياح والسباب وإغراق الناس بالاتهامات.

بالنسبة لي، كان صالون عم صلاح مكاناً للإنصات
للموسيقا العذبة التي تعزف فيه، والإنصات لكلام
الناس الذين انتقاهم عم صلاح بعناية.. ذلك الجو
الاجتماعي المريح الذي تنصرف منه وأنت تشعر
بكمية مرعبة من الرضا والسلام النفسي والسعادة
التي تفوح من فكرة أن الوقت الذي قضيته هناك لم
يضع سدى.

عندما جلست في موضعي المعتاد بجانب طارق،
انتبهت أن هناك رجلين غربيين يجلسان بجانب عم
صلاح.. التفت وسألت طارق عن هويتهم: فهز كتفيه،
وهو يعبث بلحيته قائلاً:

- علمي علمك ... يبدو أنهم ضيوف جدد لم نرهم من
قبل.

- أشكرك على توضيحك الدسم ... لقد كحلتها فعلاً.

نظر لي بزاوية عينه بسخرية، على حين قام عم صلاح ووقف في منتصف الغرفة، وقال:

- اسمحوا لي أن أعرفكم على صديقي سعيد ...
هو صديق قديم جداً على رأي كاتبنا إبراهيم
أصلان... كنا نجلس سوية في شارع المعز
بالقاهرة... وكنت أعزف بينما هو يغني... على
فكرة، هو محب كبير للفنان محمد رشدي.

وعلى وقع عبارات الترحيب، وقف عم سعيد محيياً
الناس بيد على صدره.. كان عم سعيد كهلاً في أواخر
الخمسينات، له ملامح تركية لا تخطئها العين، ولا
يكف عن الابتسام بتلك الابتسامة الودودة الأبوية.

وبدأت أصوات الموسيقى بالتصاعد في لحن شعبي مصري.. وبدأ بعدها عم سعيد بالغناء...

وحياة من خلا كلامك أحلى من الشربات

وحياة من خلا العود ملفوف أربع لفات

كان يغني ببساطة من دون أي جهد يذكر.. بصوت شجي ملوحاً بكلتا يديه، أخذ ينتقل بين كوبليهاث الأغنية حتى انتهت.

وجدنا أنفسنا بعدها نصفق بحماس.. هذه موهبة لم تر من يدعمها ويفسح لها المجال.. رجل بهذا العمر ومازال صوته ناصعاً.. كم من هؤلاء من أمثال عم سعيد ولم يسمع أحد عنهم شيئاً!!؟

عندما هدأت الأصوات، وقف عم صلاح وأشار للرجل الآخر قائلاً:

- أريد أن أعرفكم أيضاً على ضيفنا العزيز الآخر.. الكاتب الكبير الأستاذ بهاء توفيق.. صاحب الرواية الشهيرة.. (أوراق النعناع البني) .. وهو أيضاً يكتب في عدد من المجلات والدوريات.

تعالّت أوراق التصفيق مرة أخرى.. ووقف الرجل محيياً بهدوء.. نظرت له بتمعن.. كان في بدايات الخمسين، بقامة طويلة، وعينين زجاجيتين، خاليتين من التعبير.. كان هناك شيء ما غير مريح في هيئته وملامحه.. نوع من العجرفة التي تستطيع التقاطها بسهولة.. أضف على أنني لم أسمع برواية أوراق النعناع البني هذه من قبل.. شعرت بعدم الارتياح من كل هذا.. لذلك سألته بحذر:

-هل تستطيع لو تكلمت أن تسرد لنا ملخصاً
لروايتك التي ذكرها عم صلاح؟ .. عذراً، فأنا لم أقرأها
من قبل وأشعر بفضول لمعرفة بضع نقاط عنها.

الحقيقة، أنني نجحت بمعجزة في تحويل عبارة، لم
أسمع عنها من قبل، إلى لم أقرأها من قبل، ويبدو أنه
قد شعر بذلك فتقلص وجهه قليلاً، ثم قال بهدوء:

-الروايات لا تلخص يا صديقي العزيز بل تقرأ حرفاً
حرفاً كما هي .. التلخيص يجعل منها مسخاً لا هيئة
له ... عموماً سأهديك نسخة منها في المرة القادمة
مع توقيعي عليها طبعاً...

ثم تحول مجرى الحديث الى أمور أخرى.

كنت بطبعي أكره المتعجرفين، لذلك شعرت بالغضب
من أسلوب كلامه.. هناك أناس يكلمونك وكأنهم

حكماء يكلمون حمقى، بطريقة يغرونك فيها أن
تمسح بكبريائهم المريض بلاط المكان.. ولكن احترام
الصالون وصاحبه، أجبرني على الجلوس صامتاً
والاكتفاء في الاستماع لا أكثر.

بعد برهة، استأذن كاتبنا وغادر الصالون وهو ينظر الى
هاتفه بحدّة.

جلست بعدها بجانب عم صلاح، وسألته:

- من هو بهاء هذا يا عم صلاح! ؟ ... لم أسمع
به ولا بروايته من قبل.

ابتسم عم صلاح، وهمس لي:

- لم تحبه، أليس كذلك! ؟ .. كلنا ذلك الرجل،
ولكنني كنت أحاول إخراجه من عزلته.. أتعلم
أنه يعيش في المبنى هنا؟ في الطابق الذي

فوق طابقي، في آخر الممر.. أشك أنك رأيته
من قبل.

قلت بدهشه:

- في المبنى هنا!! غريب.. حسبت أنني أعرف كل
الساكنين العرب.

- كان صحفياً لا تميزه أي موهبة ... لديه زاوية يومية
يكتب بها في صحيفة متوسطة الشهرة، وروايته (
أوراق النعناع البني) هي من تلك الكتب التي لا
يعرف كاتبها نفسه ما يريد ... والحمد لله أنه لم
يتحمس ويحدثنا عنها ... المهم... حدث انقلاب
عسكري في بلاده، وبعدها بطريقة ما أصبح لديه
برنامج توك شو يومي ... كانت هذه فرصته، ففعل
أقصى ما يستطيع أي بوق أن يفعله مع مقدار

شتائم لا بأس به ... أصبح أحد صبيان السلطة
المدللين ... لكن للأسف وكما في قصص المآسي، لم
يدم هذا طويلاً ... حدث انقلاب عسكري آخر في ليلة لا
ضوء للقمر فيها ... يبدو أنه نجح لذلك السبب
بالتحديد ... الخبر السيء أن جهة الانقلاب كان لها
نصيبتها من شتائمه ... بالكاد تمكن من الهرب إلى
منفاه الاختياري ... هذا أفضل من المعتقل بكل
الأحوال، رغم الحبس الانفرادي الذي يمارسه هنا بكل
دقة... ما علينا .. عموماً، أعتقد أنه لن يأتي إلى الصالون
مرة أخرى، لذلك لا تشغل نفسك به.

هزرت رأسي بصمت، بينما انشغل هو بضبط أوتار
عوده وهو يدمدم بأغنية ما.. عدت لأسأله بسرعة قبل
أن يبدأ العزف:

- عم صلاح ... لماذا تتحمل كل هذا الجهد
باستضافة كل هؤلاء الأشخاص بما فيهم أنا
ببيتك !!!؟؟ مصاريف وجهد ومشاكل قد
تحدث مع الجيران أو الشرطة.

ابتسم بعينين حزينتين، وقال لي ساهماً:

- أحاول نسيان آلام الغربة، والحنين إلى أيام
زمان ... عندما يكبر الواحد منا تطفو ذكريات
طفولته وشبابه المبكر فوق أي شيء في
عقله... والغربة تجعل ذكرياته تلك تأتيه قبل
أن يبيض شعره حتى... هذه الساعات القليلة
التي تأتون إليّ فيها تشعرني بأني أعيش
بالمعنى الحقيقي للحياة.

ثم التفت إليّ مبتسماً، وقال:

- علاوة على أنني أجد في أي مشكلة حدثت نوع من الطرافة أو لنقل .. الكوميديا السوداء... أراها هكذا بعد أن تنتهي طبعاً.. في شبابي كنت أنتظر بفارغ الصبر أي مشاجرة تحدث في الحيّ لأحشر نفسي ضمن المتشاجرين... إلى أن أكلت في يوم ما علكة جامدة شفتني من هذا الشغف.

ضحكنا سوية بصوت عال، وعدت بعدها إلى مقعدي بجانب طارق بينما رفع عم صلاح يده وأنزلها بسرعة فبدأ العزف، وغرقنا جميعاً في تأملاتنا.

عندما انصرفنا من صالون عم صلاح، مشيت ببطء متجهاً إلى المصعد.. كان رأسي مترعاً بأصوات الكلام والنغمات الحاصلة منذ قليل.. تلك اللحظات النادرة

التي يمتلئ قلبك خلالها بالهدوء، ولا تعباً بأي ألم أو
حزن حصل أو قد يحصل..

خطرت لي ليلي ... الحقيقة، أنني لم أنسها قط وخاطرة
في قلبي دائماً ... أراها في كل أغنية عذبة، وفي كل وقت
ينتابني فيه ذلك الشعور المرهف ... عندما تكون
روحك في أوج صفائها، تبعث في نفسك كل ذكرى
جميلة أبتك في أيام الصبا، حيث كانت نفسك قليلة
الشوائب وكانت البراءة هي صاحبة الكلمة العليا.

هناك هاجس دائم يلح عليّ بأنه لابد أن أقترّب ... لكن
الاقتراب يخيفني بما فيه من احتمالات سوداء كئيبة
... أن تنتهي الحكاية قبل أن تبدأ ... أن تصحى يوماً
بلا أمل ... قد يكون مزيفاً أو غير قابل للحياة ... ولكنه
يبقى حامياً لقلبك من أن يموت كمدّاً... همس في
نفسي صوت خبيث عدة مرات قائلاً: بأن ليلي هي

فتاة بالنهاية، ويوجد منهن في الدنيا الكثير ... تخرسه
في عنف حواسي كلها ... وتقول لي بصوت واحد : لا
يوجد في الدنيا إلا ليلى واحدة، ولا ليلى لك إلا هي ...
يرتجف قلبي من احتمال أن تمضي بعيداً لسبب ما،
عندها لن تبقى لي سوى حياة حالكة لا يملؤها سوى
الخواء، ولم يبعدني عن تلك الهواجس والأفكار سوى
النوم...

في الصباح أثناء انهماكي في العمل شعرت ببعض
التعب.. تراجعت مع الكرسي إلى الورا، وأغمضت
عيني، وحاولت إبعاد عقلي عن العمل قليلاً.. في ذلك
الوقت خطر لي ذلك الكاتب بهاء مع عجرفته وعيونه
الزجاجية.. بدا لي غريب الأطوار حقاً، وتصرفاته أبعد
ما يكون عن تصرفات الكتّاب الذين يميلون عادة إلى
الثثرة وتجاذب أطراف الحديث، ولو كمظهر اجتماعي

لا أكثر.. هل يخبئ يا ترى سرّاً ما، ويخشى لو تكلم
أكثر أن يكتشفه أحد؟؟

إلا أن خاطراً أيقظ حواسي كلها، وجعلني أقوم عن
الكرسي وأحوم في أرجاء الغرفة.

هل هو الكاتب نفسه!!؟

هل وضع متعمداً شخصية تمثله داخل المبنى!؟

ولكن لم سيفعل ذلك!؟

هل هو الغرور وحب الاستعراض؟؟ نوع من
النرجسية ومحاولة إثبات الوجود.

كان ألفرد هيتشكوك، المخرج البريطاني الشهير يظهر
في كل أفلامه بلقطة خاطفة دائماً، وهو يتكلم في

الهاتف في كابينة عمومية، أو يقوم بأدوار صغيرة
ببداية أفلامه.. فهل الكاتب من نفس النوع؟؟

ولكن فيم سيفيده ذلك.. هل هو يكتب من هذا
المنظور؟؟ وكيف سيقنع القراء وهو ينعزل بشكل
شبه كامل في شقته؟ .. أم أنه يحاول إقناعهم بأنه يرى
كل شيء من ثقب الباب!؟

أصابني هذا بنوع قوي من الفضول.. وخطر لي أن
أزوره في شقته.. سيكون من الطريف أن تجتمع
شخصية قصصية بكاتبها مع علمها بكينونته.

أنهيت عملي خلال الساعات القليلة التالية، ثم بحثت
عن رواية "أوراق النعناع البني" .. توقعت ألا أجد
رواية بهذا الاسم.. ولكن صبراً ها هي!...

حملتها على جهازي وأخذت أتصفحها .. وصلت
للصفحة العاشرة ولم أفهم شيئاً.. هل هي فعلاً أحد
روايات الكاتب أم هي مجرد ديكور لشخصيته هنا
فقط، والكلام غير المفهوم هذا افتعله الكاتب لا أكثر..
هل هو الكاتب حقاً؟؟ أم هي مجرد تخيلات عندي
وافترض خاطئ لا أكثر.

عموماً، حتى إن لم يكن هو فلن أخسر شيئاً، وربما
أكسب صداقة جديدة.. ربما يكون أفضل حقاً مما
يبدو عليه...

وخرجت بعدها لأبحث عن شقته.. ولكن أين هي؟؟
هل أذهب إلى عم صلاح وأسأله؟؟

"في الطابق الذي فوق طابقي، في آخر الممر..."

هو يسكن إذن في الطابق الخامس.. نزلت بالمصعد
إلى هناك ووقفت متأملًا الأبواب..

أي واحد منها يا ترى؟؟

لاحظت وجود شقة نهاية الممر جانب الدرج ... في
طابقي لا يوجد أي شقة هنا، فقط جدار خال ...

هل لهذا دلالة ما!!!؟

لن أعرف.. على الأقل الآن

لذلك وقفت أمام باب شقته وشرعت أدق الباب بكل
إصرار..

لبضع لحظات لم أسمع أي حركة من داخل الشقة
...تابعت الدق حتى سمعت صوتاً يسأل بعصبية عن
الطارق.

أجبت بهدوء:

- أنا راحمي، جارك في المبنى وأحد قرائك.

عاد ليسأل بلجة جافة:

- ماذا تريد؟؟

- أنا معجب بما تكتبه، ولدي بضعة أسئلة حوله.

ساد الصمت لدقيقة تقريباً، ثم عاد وقال:

- أنا إنسان مشغول ولا وقت لدي، لذلك أرجو

ألا تدق الباب مرة أخرى.

وسمعت صوت خطوات تبتعد ... هذا هو الطرد

المعياري بحق... شعرت كأنني بائع متجول أغلق

الباب في وجهه بحنكة... أغلق قبل أن يفتح حتى ...

أعتقد أن الوقت حان لأنسى الموضوع كله، لذلك
نزلت إلى حديقة المبنى، وجلست في أحد أركانها
أتأمل المبنى والتفاصيل التي تحيط به.. مضى وقت
لا بأس به منذ تلك الليلة التي وصلت بها إلى هنا..
أمر عديدة تغيرت منذ ذلك الوقت.. أنا نفسي
تغيرت في أشياء أعلمها وأخرى أكثر أجهلها.. التغير
البطيء الواثق الذي قد تكتشفه في موقف ما،
وتتعجب من قناعة ما تغيرت لديك بشكل لم
تتوقعه أبداً..

بعد برهة، انتابني ذلك الشعور بأن هناك من يراقبني
... رفعت رأسي باتجاه نوافذ المبنى، ومن خلال أحد
نوافذ المبنى الجانبية لمحت وجهاً ينظر لي بإصرار...
تلاقت أعيننا لبضع ثوان ثم تلاشى الوجه بعيداً..

تلك الأعين الزجاجية التي لم أنسها بعد.. عينا الكاتب
بهاء.

هذا رجل خائف، ولا شك..

عدم فتح باب شقته، وكلامه بحدة، ومن ثم مراقبته
لي بتطور درامي مفاجئ ... الله أعلم ماذا يمكن أن
يفعل بعدها...

باركت لنفسي الانتقال بهذه السرعة من مستكشف
إلى مستكشف ...

وأنا لم تعد لدي رغبة في الجلوس أكثر.. شعور أنني
مراقب طغى على كل تفكيري بحيث لم أعد أستطيع
التفكير بشكل سليم.. لذلك قمت وعدت أدراجي إلى
الشقة.

جلست أفكر بما جرى ... من الواضح جداً أنه ليس الكاتب.. هم يتمثلون بشخصيات محايدة أو شخصيات مسيطرة ... ولا يمكن أن يكون خائفاً ومختبئاً ... هذا لا يرضي غروره ... قد يكون المشرف هو الكاتب نفسه ... هو لا يكف عن الشك وتوجيه التحذيرات والأوامر... هذه شخصية مغرية حقاً، ولكن لا ... لا يمكن أن يكون هو لأنه قليل العلم ومسطح للغاية، والكتاب يحبون أن يظهروا كمتقنين أو مؤثرين حتى في قصصهم ... شعرت بالغيب من نفسي التي لا تكف عن البحث والتفكير بهذا الموضوع بالذات، وكأنني لم أتعظ مما جرى لي مع بهاء ... في تلك اللحظة، سمعت وقع خطوات خفيفة ملاصقة لباب الشقة ... تحركت بسرعة ونظرت من

ثقب الباب، رأيت شخصاً يقف متردداً أمام شقتي
بالضبط...

كان هو بهاء نفسه!!!

أخذ يتمتم بكلمات ما، ثم اقترب وألصق عينه هو
الآخر في ثقب الباب...

عين حمراء محملقة تلحق زجاج الثقب بجشع ... في
اللحظات التالية، كان الغضب هو ما حركني ... رفعت
يدي اليمنى وخبطت الباب بقوة ... ابتعد عن الباب
في عنف ثم انطلق هارباً... فتحت الباب، وبالكاد
لمحت شبحاً يتوارى آخر الممر مع صوت خطوات
سريعة على الدرج ... عدت وأغلقت الباب وأنا ألهث
... هذا الشخص غير طبيعي أبداً..

هل قاذني حظي العاثر إلى استفزاز مجنون خائف؟؟

فكرت بإبلاغ المشرف، ذلك الأحمق الذي يجلس
طوال النهار أمام شاشات المراقبة، وكنت أنا الوحيد
الذي رآه يتجسس على شقق الآخرين...

لكن المشكلة، أنني أنا البادئ بكل هذا وسيلقي اللوم
عليّ بل وسيتهمني بمعاودة إزعاج الجيران.

لقد وضعت نفسي بمأزق لعين، والله وحده يعلم ما
قد يفعل ذلك الأحمق.

أمسكت الهاتف واتصلت بطارق ... جاءني صوته
الخمول، فقلت له بسرعة:

- أنا في مشكلة معينة، وأريد استشارتك.

- الآن!! اتركها للمساء، أنا...

- لا أستطيع الانتظار، أنا قادم إليك الآن.

وأنهيت المكالمة ... فتحت الباب بحركة سريعة
وتلفت حولي... كان الممر خالياً، غادرت بخطوات
عاجلة متجهاً لباب المصعد.

حك طارق ذقنه مفكراً باستغراق ... كنت قد انتهيت
من سرد ما جرى، وجلست أهدق بتركيز في نقوش
السجادة...

بعد دقائق غمغم قائلاً:

- غريب ... ما حدث مبالغ به حقاً ... أنت لم
تفعل ما يستحق ردة فعله تلك، وحتى أكثر
البشر تحفظاً كان سيتسامح معك في أول
مرة تقرر فيها بابه ... قد لا يتجاوب معك ...
ولكنه لن يلصق عينيه بثقب بابك ... ماذا

توقع أن يرى ذلك الأحمق من الطرف الآخر
من ثقب الباب! ؟

ثم التفت نحوي، وسألني:

- بالمناسبة ... ما الذي جعلك تدق بابه أساساً
... ماذا كنت تريد منه! ؟

آآه ... هذا آخر سؤال أتمنى سماعه ... كيف سأشرح
له أنني أبحث عن شخصية الكاتب من بين
الشخصيات الموجودة في المبنى، والتي هي كلها ...
مثله تماماً ... شخصيات قصصية إما خيالية أو
انعكاس لشخصية حقيقية موجودة بما يسمى
بالحياة الواقعية ... إنك، يا عزيزي، شخصية قصصية
مثلي تماماً مع اختلاف بسيط ... أنا مدرك لذلك، أما
أنت فلا...

سيعتبرني مجنوناً أنا الآخر، وقد ينهي صداقته معي فوراً بتهمة أنني أسخر منه ... لقد حان وقت الكذب إذن.

- كنت قد قرأت منذ مدة كتابه ... أوراق النعناع البني ... وعلمت عندما اجتمعنا به في الصالون أنه يسكن هنا ... كنت أريد أن أسأله عن تفاصيل معينة في الكتاب لم أفهمها.

هز رأسه باقتناع ... ثم عاد وقال:

- لا شك أنه عالق في مشكلة ما أو متورط بأمر ما، لذلك يتصرف كقط مذعور... لا بد من زيارة له وسؤاله عما هنالك.

- قد يفعل معك أشياء مشابهة.

ابتسم قائلاً:

- لن أذهب لوحدي طبعاً ... سأكون أنا وأنت وعم
صلاح على الأقل ... ولو حدث، ولم يفتح الباب
سنكون في المرة التالية بصحبة المشرف ... لن ننتظر
حتى يرتكب حماقة أخرى.

- ماذا سنفعل الآن ؟

- لا شيء ... عد إلى شقتك ودعني أكمل قيلولتي ...
سنجتمع في المساء عند عم صلاح ونرى ما نستطيع
فعله.

توقف المصعد، وخرجت سائراً بتمهل متجهاً لشقتي
عندما شعرت كأن مطرقة كبيرة هوت عليّ..

خلال اللحظات التالية، كنت مستلقياً على الأرض
ورجل ذو عينين زجاجيتين يجثم فوقّي، وهو يكيل لي
بكل غلّ ضربات عشوائية متوحشة، صارخاً بجنون:

- أيها الأوغاد السفلة ... لن يذهب دمي هكذا ...
ستشرب الأرضية كلها من دمك أنت يا كلب
السلطة ... سأقتلع عينيك يا خنزير.

كنت أشعر بذهول أفقدني القدرة على أي ردة فعل ...
لم أستطع استيعاب أنني أتعرض للضرب والإهانة
بهذه الطريقة ... في النهاية، رفعت يدي ولكمته بين
عينيه فسقط جانباً بدون حراك... وقفت بصعوبة وأنا
أترنح ولمحت المشرف يهرول في الطرف الآخر من
الممر ... جلست مستنداً على الجدار وأغمضت عينيّ
ولم أعد أعي ما يدور حولي...

عندما استعدت تركيزي، وجدت نفسي جالساً في
غرفة المشرف مع مجموعة من البشر، تبينت منهم
طارق وعم صلاح.. لم أكن بعد قد تخلصت من
شعور الصدمة.. ولم أعلم أساساً كيف أتيت إلى هنا..

وأنا أسمع أصواتهم تأتي من بعيد، كنت أفكر بما
جرى.

عامّة، أنا مسالم ولا أحب الشجار، وإن حدث أكون أنا
البادئ أولاً، لذلك كنت أشعر بالغلّ وبرغبة قوية
بالانتقام.. هز طارق يدي وهو يقول ضاحكاً:

- بماذا تفكر الآن يا بطل ... لقد أشبعك الرجل
ضرباً وتكفّلت بعدها لكمة واحدة منك بإنهاء
المعركة... المعتدى عليه يجلس بيننا معافى
والمعتدي في المشفى.

عقدت حاجبي، قائلاً:

- في المشفى!! هل حصل له مكروه؟

قال عم صلاح بهدوء:

- لم يتحمل جسمه الممتلئ بالشحوم كل هذا
العنف.. عملياً هو لم يضربك أنت، ولكن كان
يضرب نفسه.. النتيجة أنه يعالج الآن من
بداية جلطة.

أكمل المشرف الكلام بحدة:

- لولا كاميرات المراقبة، لكنت الآن في السجن
تبول في دلو معدني أمام الجميع ... تصرفاتك
الحمقاء هذه ستقذف بك إلى جهنم مباشرة
...

أعدك صادقاً، أنني سأرميك في المرة القادمة أنت
وفضولك خارج المبنى.

عاد عم صلاح ليقول بسرعة:

- اهـأ يا ءرة المشرف .. الـق على الأبواب
ليس ءرمة يعاقب عليها القانون... المشكلة
أن بهاء كان في وـضع نفسي لا يحسد عليه...
ما قاله أثناء العراك يفسر كل شيء... لقد ظن
أن رءمي مرسل من ءكومة بلـده لـخطفه أو
قتله ... هذا يءـءث كثيراً هذه الأيام... الخوف
يـءـل الإنسان يتوحش أحياناً... لا أرى أن
هناك ما نستطيع لومه غير سوء الظن لا أكثر.

لوح طارق بيـده، قائلاً:

- لـدينا الآن بهاء المصاب بـءلطة، ورءمي الـذي أكل
علقة لن ينساها أبداً ... هذه نهاية ءيدة ءقاً ليوم
صيفي ءميل.

- لنـدع رـحـمـي يـقـضـي بـقـيـة الـيـوم مـسـتـلقـياً فـي بـيـتـه
ولـنـعـد لـمـشـا غـلـنـا.

كـانـت هـذـه عـبـارة الخـلاص لـلـجـمـيع مـن هـذا المـوقـف
الثـقـيل، و سـرـعـان مـا تـفـرـقـوا بـعـد أن تـأكـدوا أنـي.. لـحـد
مـا.. بـخـير.

كـانـت الشـمـس قـد غـابـت تـمـاماً و راء الأفـق، مـشـيت
بـبطـء مـتـجـهاً لـلـمـصـعـد.

إـذـن، لـم تـخـرج القـصـة عـن شـاب فـضـولي و كـهـل مـذـعـور
و نـهـايـة غـير مـتـوقـعة.. و لـلـمـرة الثـانـيـة يـخـطـئ حـدـسـي
ا تـجـاه أـحـد ساكـنـي المـبـنـى.. هـذا الـيـوم الـذي بـدأ
بـافـتـراض مـشـيت و راءه بـكل حـمـاس، و انـتـهـى بـعـلـقة
مـن بائـس حـسـب أنـي أريد القـضـاء عـلـيـه.. إـحـسـاس كـريـه
بـعـدم الجـدوى يـراودـني.. و صـلـت لـلـمـصـعـد و ضـغـطـت

الزر ففتح بهدوء.. دخلت ومددت يدي لأطلب الطابق
التاسع، وهنا لاحظت أمراً غريباً..

المبنى مكون من عشرة طوابق، فلماذا يوجد هناك
زر للطابق الحادي عشر!!؟ هل هو موجود من قبل
ولم أنتبه له حتى الآن؟؟

لماذا يكون هناك زر لطابق غير موجود أساساً!!؟
تحسست الزر بحذر.. نعم هو زر حقيقي لا جدال..
قبل أن أفكر أكثر كنت قد ضغطت عليه.. لثوان لم
يحدث شيء، ثم تحرك المصعد صاعداً برتابة حتى
وصل للطابق الحادي عشر.. ومع موسيقا سريعة
توقف، وفتح الباب ليكشف عن ممر طويل بورق
جدران أزرق مزدان بأضواء متباعدة، ولمحت في طرفه
الآخر باباً مغلقاً ... على الطرف الأيمن من الممر
لمحت رجلاً فارح الطول، ملامح وجهه الحادة أقرب

لملامح فأر كبير.. كان ينظر لي بلا أدنى انفعال، ثم قال
بصوت عميق:

- يريدك

- من !!؟

ظل صامتاً لثوان، ثم أشار برأسه لآخر الممر.. خرجت
من المصعد، وأخذت أسير وأنا أتلفت باستمرار..
كانت هناك لوحات موزعة على جانب الممر تصف
مشاهد مختلفة..

فتاة صغيرة تلعب قافزة على الحبل في شارع مظلم..
شخص بعينين جاحظتين يجلس في غرفة مظلمة
وهو يغلق أنفه بكفتي يديه بإحكام..

شخص آخر يلصق أذنه على جدار، منصتاً لأمر ما يحدث وراءه..

لوحات عديدة أخرى لم أتبينها جيداً.. بدا الممر طويلاً حقاً.. وقبل أن أقترّب أكثر، فتح الباب نصف فتحة ببطء، ورأيت أجزاء من غرفة مكتب زرقاء بالكامل، هي الأخرى..

في منتصف الغرفة، وقف رجل يلبس ثياباً بسيطة.. كان يمسك لما أفترض أنه كتاب ضخّم معطياً ظهره لي بالكامل.. التفت ببطء، وظهر لي طرف وجهه.. لمحت ابتسامة خفيفة على وجهه.. هممت بمتابعة السير، عندما سمعت صوت الرجل الفأر يقول بنبرة حازمة:

- عد أدراجك.

التفت إليه بسرعة، ثم عدت والتفت بعدها مرة أخرى
إلى باب المكتب..

كان مغلقاً وكأنه لم يفتح قط..

عدت إلى المصعد، وضغطت زر الطابق التاسع.

عندما خرجت من المصعد عدت ونظرت إلى أزراره..
كان زر الطابق الحادي عشر قد اختفى.

هكذا وصلني الجواب كاملاً... الكاتب موجود فعلاً في
المبنى ولكن في مكان لم أتصوره قط...

مكان لا يمكن الوصول إليه إلا بضغطة زر، لن تجده
إلا عندما يريد هو...

لماذا أراد لي أن أجد الزر وأرى ما رأيته!!؟

لا أعلم على وجه التحديد ... قد أسأله لو أتيح لي ذلك
في المستقبل...

لو حدث وقابلته وجهاً لوجه، وليس من بعيد، وكأنه
شيء مقدس لا مجال للاقتراب منه أكثر من اللازم،
الذي يحدد هو مداه أيضاً.

لقد عرفت الجواب، وزاد بعد ذلك إدراكي بأنني
شخصية قصصية في واقع شبه حقيقي ... لا أدري ما
الفارق بيني وبين ما يقال عنهم بشر حقيقيون ...

أنا أرى أني ومن حولي بشر حقيقيون أيضاً، لنا أيامنا
مثلما لهم أيامهم، ولنا أحلام كأحلامهم ... حياتنا
المليئة بالتجارب أكثر إثارة من حياتهم الرتيبة، وإلا
فلماذا يسعى الكثير منهم لاقتناء رواية أو قصة ما،
والجلوس في ركن منعزل، ليطرخوا واقعهم هاربين،

ويأتون زواراً لأمكنة أخرى حافلة بمواقف لن
يختبروها في واقعهم قط، وشخصيات لن يجدوها
بينهم قط، ويعودون في لحظة إغلاقهم دفتي الرواية
إلى مفرداتهم الباهتة، شاعرين بالحنين إلى اللحظة
القادمة التي سيعاودون فيها الكرة ويأتون من جديد.
لم ينته اليوم بعد بالنسبة لي ...

كان هناك طقس معين أقوم به عندما أشعر بالرغبة
في مغادرة المبنى ونسيان أمر مزعج حدث لي، وهذا
ينطبق بدقة على ما حدث لي اليوم ... وبما أن
الطقوس لا تحدث إلا في أماكن ملائمة لكيثونتها، فقد
كان عليّ أن أمضي بعيداً إلى ذلك المقهى المطل
على بحيرة لا تبعد كثيراً عن المدينة، ولكن بمجرد
دخولك له ستكتشف أنك حقاً قد ابتعدت بما فيه
الكفاية عن كل شيء ...

مخبئي السري التي تختلط فيه رائحة الكتب مع
روائح المشروبات الخفيفة، والموسيقا الناعمة التي
تنبعث من اللامكان... الضوء الخافت الذي يجعل
الظلام الرحيم هو المسيطر... الديكور الخشبي الفخم
... بإمكانك هنا أن تقرأ أو تعمل أو تصاب بالشرود...

صاحب المكان هو قارئ نهم، اكتشف أنه يملك مالا
وفيراً، فكان أن وجد هذا المكان الذي أسماه المخبأ
السري... أتى كعاداته عندما لمحني أجلس في مكاني
المعتاد، حيث يمكنني تأمل البحيرة من خلال الزجاج
العريض، وقد أخذت تتلأأ تحت ضوء القمر.

- ماذا تريد أن تقرأ اليوم... هل أنتقي لك كتاباً
أم عندك عنوان معين... ما رأيك برواية
لستيفن كينغ؟

في الحقيقة، أرغب برواية ما واقعية.

رواية واقعية!! حسبت أنك تريد الهرب من الواقع للخيال.

- ضحكت بصوت خفيف، وقلت له:

أريد أن أهرب من الخيال إلى الواقع هذه المرة.

وعدت أضحك بهدوء، على حين أخذ يهز رأسه مبتسماً بحيرة.

عندما أفقت في ساعة متأخرة من صباح اليوم التالي، رأيت أنه من الواجب أن أزور بهاء في المشفى ... برغم كل شيء هو ضحية بامتياز ... تذكرت سوء الظن الذي دفعني للشك بعم صلاح وبطارق، وكيف بدت كل هواجسي اتجاههم منطقية قبل أن يتبين كم كنت أحمقاً وقتها.

عندما دخلت الى غرفته في المشفى إياها، كان
مستلقياً مغمض العينين على السرير ... وضعت
باقة الورد على الطاولة، وجلست قربه على المقعد ...
فتح عينيه ولما لمحني نظر لي بتوجس ... ابتسمت
وقلت له بلطف:

-جئت لأطمئن عليك ... لا ضغائن مطلقاً، برغم كوني
الضحية بشهادة من شاهد ما جرى على الأقل.

بادلني بابتسامة مرهقة، وتمتم بوهن:

- كلنا تلك الضحية يا صاحبي وإلا لما أتينا الى
هنا ... كل منا له أسباب هربه الخاصة ... أعذر
منك، ولكنني كنت حقاً في ظروف نفسية
صعبة، خاصة بعد الذي حدث منذ أيام في
السفارة إياها ... ذهبت منذ شهر إلى إحدى

الدوائر الحكومية هنا لطلب بعض الأوراق من أجل تمديد الإقامة، فطلبوا مني ورقة لا أستطيع تأمينها إلا من سفارة بلدي ... استشطت غضباً وأخبرت الموظفة بأنني لو دخلت السفارة فلن أخرج منها حياً... ضحكت هازئة مني، وقالت بضع أشياء عن القوانين الدولية التي تمنعهم من ذلك ... خرجت من عندها غاضباً بشدة، واستطعت بعد ذلك تأمين تلك الورقة بمبلغ كبير من المال ... وحدث ما حدث بعدها مع ذلك الرجل الذي دخل سفارة بلاده ولم يخرج منها قط ... أرجو أن تكون تلك الحمقاء قد فهمت اللعبة عندنا الآن ... لا أزعم أنني كنت أفعل أشياء

مستقيمة دائماً ... ومن منا كذلك ... ولكني لا
أستحق أي نهاية مشابهة.

ربت على كتفه، وقلت له، وأنا أنهض مستأذناً:

- اهدأ، ولا تجهد نفسك ... المهم الآن أنك بخير
... ما حدث جعلك تخرج من سجنك على
الأقل ... فقط تمتع بالهدوء وبرؤية الممرضات
الجميلات ... لابد أنهم يملكون بعضهم هنا...
وعندما تخرج أنت مدين لي بزيارة لك ... أنا
مصرُّ على فهم ماذا كنت تريد قوله في (أوراق
النعناع البني)

ضحكنا بهدوء، ومضيت بعدها عائداً إلى البيت ...

كوابيس المشرحة

عامة، لا أحب السهر، لأن هذا يعني أن تستيقظ خاملاً
بعد ساعات نوم ضاعت سدى ... أحب شعور الارتواء
المنعش بعد قضاء وقت كاف في السرير، تنهض
بعدها شاعراً بجوع لاخترق يومك بكل شهية وهمّة
... لكن في أوقات معينة أجد نفسي بعيداً عن خدر
النوم اللذيذ الذي انتظرت طويلاً دون جدوى ... أسمع
همسات الليل، وهو يناديني بأنه بحاجة إلى صحبة
وبأنني ضيفه المنتظر ... وهو يعرف كيف يجعلني
غير قادر على رفض الدعوة ... عندها أقوم وأحضر
نفسي للقاء، بينما يخبرني العندليب الأسمر بأن الليل
أنوار وسمر ... ونجوم وقمر ... وعيون في عيون ... إن

الخيارات لعديدة حقاً ... فيلم وضعته جانباً لوقت ما،
أو الاستماع لموسيقا ليلية، وعادة أفضل العزف على
العود ... كتاب يعدُّ بمواقف ولحظات لا تنسى ...
هناك العديد من الأشياء التي تشعر أن الليل
مناسب لها بنسماته الصيفية أو برودة شتاءه، حين
تعوي الرياح كالأشباح في الخارج، لتدرك كم أنت
سعيد الحظ بكونك بعيد عن سطوتها...الليل كائن
غامض جميل الصحبة، يحب دائماً أن يجعلك تتوه
في ثنايا ذكرياتك البعيدة، وبما كان وبما لم يكن قط...
كانت الليلة من تلك الليالي، وشعرت أن بعض
الموسيقا الممزوجة بقليل من الشرود سيدع النوم
يأتيني بلا سابق إنذار... هذه وصفة لا تخيب ... وبعد
مدة لم أستطع تحديدها وجدت نفسي في المشرحة

!!

للدقة، لم أكن ممدداً على الطاولة الرخامية المثقوبة
إياها ... كنت واقفاً بقربها عاجزاً عن الإجابة عن سؤال
بسيط ... ما الذي أتى بي إلى هنا!!؟

كانت الغرفة باردة جداً كما يليق بمشرحة تحترم
نفسها، وقد احتشدت بالأدراج الكبيرة المرقمة التي
لن تجد مثيل لها في أي مكان آخر ... أدراج الموتى.

خطوت الى الباب بسرعة، وأخذت أدقه وأصيح
بصوت عال بلسان ثقيل وصوت لا يكاد يسمع ...
أصابني اليأس بعد عدة مرات، وعدت إلى داخل
المشرحة ... هل أنا أحلم أم مت ووضعوني هنا!!؟

سمعت خاطراً يقول لي: أنك تحلم ... ولكن ما نوع
هذا الحلم الذي تدرك فيه أنك تحلم ولا تستيقظ
منه!؟

الدنيا برد ... برد...

أرتجف مذعوراً بلا أمل.

خطر لي أن أفتح أحد تلك الأدراج وأتمدد داخلها ...
سيكون الطقس هناك دافئ أكثر.

اقتربت من أحدها بتردد وجذبه بقوة ... استجاب
خارجاً ببطء وبدأت أدرك برعب أنه ليس خالياً ...
كانت فيه جثة مغطاة بقماش رمادي ... أدرك كل
تفاصيل المشهد الشنيع ... رفعت يدي وجذبت
الغطاء.

كانت تلك الفتاة الخليجية الهاربة مستلقية داخلها
بعينين شاخصتين لأقصى اتساع ممكن ... في تلك
اللحظة سمعت أنين مزعج ... التفت فرأيت الباب
مفتوحاً ... من فعل ذلك؟! ركضت بقدمين لا تكاد

تتحركان نحو الباب ... ضوء ساطع غمر عينيّ فجأة
... استيقظت بعدها وأنا ألّهث بقوة.

نظرت للموجودات حولي عاجزاً عن إدراك الحقيقة
من الوهم... مقاوماً هذا الإحساس الكريه، نهضت
متأملاً النافذة ... كان كل شيء كالمعتاد ولا وجود
لمشارح ولا أدراج للموتى ... أغمضت عينيّ قليلاً، وأنا
أحاول طرد ما أشعر به من تشّتت ... كابوس لعين
آخر من تلك الكوابيس التي تحمد الله على أنها لم
تتعدّ كونها كذلك ... نادراً ما أحلم بالكوابيس، وخاصة
بعد سهرة تنام بعدها بمعدة شبه فارغة ... فكرت بأن
أفضل شيء يمكن فعله لنسيان ما رأيت، هو
الانغماس بتفاصيل يومي المعهودة.

في المساء علمت أن الفتاة الخليجية.. وجدت ميتة
...

كنت وقتها جالساً في صالون عم صلاح، وكان هذا هو الخبر الرئيسي الذي يتكلم حوله الجميع ... وبرغم أننا لم نستلطفها إلا أن احترام الموت فرض أن نضع الآلات جانباً ونضرب أخماساً بأسداس.

هي كانت تعيش وحدها بعد أن خفتت الأضواء عنها إلى حد ما... الحراسة ما زالت موجودة، ولكن ليس بنفس الحماس السابق ... إحدى صديقاتها حاولت مراراً الاتصال بها بلا إجابة.

عندما أتت وأخبرت الحارس الذي كان يقبع بممل في غرفة صغيرة أمام شقتها، كانت بحاجة لكثير من الصراخ والغضب ليدق الباب بلا إجابة ... واستغرق الأمر بعض الوقت ليأتي المشرف بالماستركي ويفتح الباب ... وكان المشهد الذي رآه المحتشدون أمام الشقة ... كانت ممددة على سريرها بلون أزرق

شاحب وعينين تحدقان برعب ... التحقيقات مازالت
جارية، وهناك تكتم شديد ومنع تواجد في الفناء
الخلي للمبنى الذي امتلاً بأصحاب النظارات
السوداء والنظرات الخطيرة ... على حين امتلاً المبنى
نفسه بالشائعات حول أن هناك انتقاماً سياسياً ما
قد جرى ... كلام كثير قيل، وكلما سألت أحد عن
مصدر معلوماته، يخبرني بثقة:

أنه كلام موثوق ... المشكلة أن الأقاويل متضاربة
بطريقة تجعلك تشك بأنه موثوق فعلاً ... بالنسبة لي
كانت تفاصيل الكابوس الذي كدت أنساه تموج في
عقلي بإصرار ... هل هذه صدفة؟! أسمع بعدها
قوانين الصدفة تضحك هازئة من هذا السؤال
الغريب ... تضحك من دون إعطائي أي تفسير لذلك.

أهز كتفي بعناد، وأنا أصرّ على أنها صدفة لا أكثر.

وكما يحدث دائماً، تتبنى كل مجموعة من الجالسين في الصالة رأياً ما، يدور بعده نقاش حاد يتطور إلى صياح وكلمات غاضبة، يرفع بعدها عم صلاح يده قائلاً بحسم:

- بعض الهدوء لو سمحتم ... أنتم لا تريدون طبعاً أن تشوشوا على الخبر الرئيسي لهذه الليلة بخبر آخر عن اعتقال أعضاء صالون موسيقي بتهمة إزعاج الجيران.

يفقد بعدها الحاضرون حماسهم، وتسود لحظات الصمت المؤذنة بالانصراف.

غادرنا أنا وطارق بيت عم صلاح سوية ... صارحته بعدم رغبتي في الرجوع للشقة، وهكذا نزلنا إلى حديقة المبنى، وجلسنا نصغي إلى صوت صراصير الحقل

وأصوات زحام السيارات القادم من بعيد ... هناك من وضع الشريط الأصفر إياه ببداية الممر المؤدي للجهة الخلفية من المبنى ... هذه رسالة واضحة بأن شيئاً ما غير طبيعي قد جرى ... حاولت التفكير بأي شيء آخر، على حين جلس طارق بجانبى وهو يعبث بلحيته... استدرت نحوه، وقلت له بحذر:

- لا تبدو بحال جيدة...

هز كتفيه بضيق، وقال:

- ومن يستطيع أن يكون بحال جيدة في هذه الظروف ... عندما تحدث جريمة قتل بقربك، فلن تستطيع أن تتجاهل الشعور بأنك معرض لخطر ما مبهم ... قد تكون القصة مجرد سكتة قلبية وقد تكون جريمة قتل

مدبرة ... قد يكون أي شيء، ولكن بالنتيجة
هناك من خرب عليك روتين حياتك، وهذا
شيء سيء جداً.

قلت بصوت هادئ:

- لنأمل أن يكون لما حدث تفسير بسيط ما ...
ستمضي بضعة أيام ثقيلة، وبعدها سننسى
كل شيء ونعود للتظاهر بأن الحياة تسير
بشكل طبيعي.

لم يعلق بشيء، وظل يعبث بلحيته، ثم أعلن أنه يريد
الانصراف... وكنت أنا ذات الرجل بطبيعة الحال.

كان النهار متعباً بحق ... لذلك رحت فور تمددي في
نوم عميق.

أحسست فور استيقاظي في الصباح براحة كبيرة ...
لم أر أي كابوس أو غيره ... كان نوماً لم أشعر به على
الإطلاق ... إذن ذلك المنام هو شيء عابر لا أكثر، وقد
يكون دماغي قد اختلق الكابوس برمته بعد سماع
خبر موت الفتاة الخليجية، كنوع من ألعايب العقل
التي لا تنتهي ... انهمكت في العمل طوال النهار لدرجة
أنني لم أنتبه أن الليل قد هبط فعلاً إلا عندما شعرت
بجوع شديد ... قمت متكاسلاً وفتحت الثلاجة
لأكتشف أنها خالية من أي شيء ... لا مفر من تناول
العشاء خارج المنزل في أحد المطاعم المنتشرة قرب
المبنى ... تلك المطاعم التي يراقب زبائنهم بعضهم
البعض ويلوون شفاههم باشمئزاز عندما تأكل على
راحتك دون أي تظاهر بالرقى الكاذب ...

جلست منتظراً الطعام في صبر ... على التلفاز الكبير
الموضوع في أحد الأركان هناك قناة تتحدث عن خبر
وفاة الفتاة إياها دون أن تضيف أي شيء جديد ...
تابعت ما يقال بملل، وخطر لي أن مدير المطعم
أحمق بما يكفي ليضع تلفازاً يعرض أخباراً لن تفتح
شهية زبائنه، بل سيكون مفعولها عكسي تماماً...
من يستطيع الأكل بشهية بينما يرى ويسمع كل هذه
التفاصيل المليئة بالدماء!!؟

وهكذا ازدردتُ الأكل بسرعة، وخرجت أتمشى على
مهل نحو المبنى الذي لا يبعد سوى شارعين عن
مكان المطعم ... كانت الشوارع خالية في هذا الوقت
من الليل مع صمت مطبق له هدير يصم الآذان.

شعرت ببعض الخوف، فأخذت أحدث أكبر قدر
ممكن من الضجة لكي أبقى على مقدار كاف من

التعقل يمنعني من الركض والصراخ ... الأشجار
المتوزعة عبر الشارع المظلم تزرع في نفسي ألف
احتمال حالك ... سمعت حركة خفيفة خلفي فالتفت
بسرعة ولم أر أحداً ... كان هذا هو نهاية التعقل،
فشرت أركض حتى وصلت لباب المبنى، وأخذت
أهزه بعنف، وأنا أتمتم بكلمات متقطعة غير مفهومة
... خرج بعدها حارس الباب وأضاء كشافه نحوي،
ومن ثم فتح الباب بسرعة بعد أن تأكد من
شخصيتي ... دخلت وأنا منهار تماماً، وبينما كان
الحارس يغلق الباب بإحكام كنت أنظر مرة أخرى نحو
الطريق... هناك بين الأشجار لمحت شبحاً يقف وهو
ينظر باتجاه باب المبنى في ثبات...

لم أكن قد توقفت عن الارتجاف بعد، عندما سألني
المشرف بصرامة:

- تقول أن شخصاً ما كان يطارذك أثناء عودتك إلى المبنى.

- هذا صحيح ... رأيتَه بعد دخولي الى هنا يراقبني وهو مختبئ بين الأشجار ... يبدو أنه كان ينوي فعل شيء ما لولا هربي منه.

- هل تعرف من هو ؟؟

- أبداً ... لم أميز ملامحه حتى ... كان ظلاً مبهماً مثل أي ظل يحترم نفسه.

احمر وجه المشرف، وقال بحدة:

- أي أنه إما شخص حقيقي، ومعنى هذا أننا في مشكلة كبيرة، أو أنك تتوهم كعادتك، ولديك سوابق تجعلني أميل لهذا الاحتمال.

- سوابقي تتعلق بسوء الظن بأشخاص حقيقيين،
وليس توهم وجود أشخاص غير حقيقيين.

فكر المشرف قليلاً، ثم قال بحسم:

- اذهب ونم الآن ... سأرى ما يمكنني فعله لحماية
سكان المبنى، لو صح ما أخبرتني به... أعتقد أن منع
التجول في الليل ستكون خطوة لا بأس بها.

- أرجو ذلك.

عدت إلى المنزل وبدلت ثيابي بسرعة ثم لم أعد أشعر
بأي شيء.

الواقع كنت أشعر أنني أتجمد ... فتحت عينيّ لأجد
نفسي في المشرحة!! الطاولة الرخامية المثقوبة
وأدراج الموتى المرقمة... بدا المشهد مألوفاً لي، ثم
تذكرت فجأة الحلم السابق...

هل هو حلم حقاً أم حقيقة!؟

ركضت نحو الباب ودققتة مراراً، وأنا أعلم بقرارة نفسي أنه لن يسمعني أحد...البرد يحرق أطرافي بلا رحمة ... في المرة السابقة فتح الباب بعد أن جذبت درج الفتاة الخليجية، فهل هذا ما يجب أن أفعله الآن أيضاً؟ ... تأملت أرقام الأدراج التي تملأ المكان ... هذا الشعور المروع بأن هناك من سيدفع حياته ثمناً لاختيارك ... هل للأرقام علاقة بما يجري؟ مددت يدي وجذبت الدرج رقم 81 ببطء، وبصرير عالي أخذ ينساب خارجاً ... كانت هناك جثة مغطاة فيه ... التفت نحو الباب الذي كان ما يزال مغلقاً ... مددت يدي في غل وأزحت الغطاء عن الجثة...

عندما نهضت من ذلك الكابوس وأنا أنتفض كالعادة لم يكن لدي وقت أضيعه ... غادرت الشقة بسرعة

نحو غرفة المشرف الذي كان يجلس مسترخياً على
مقعده يغمغم بأغنية ما ... نظري متسائلاً، فقلت له
بسرعة:

- هل تعرف كهلاً يابانياً أو صينياً يسكن هنا،
يوجد على ساعده وشم تينين، واحد أحمر
وآخر أسود؟؟

ضحك وقال باستمتاع:

- واسمه جاكى شان، أليس كذلك ؟ حماس
صباحي غريب، ولكن لنرى.

فكر قليلاً، وعاد ليقول:

- نعم تذكرته ... اسمه شوراكي أو شيء من هذا
القبيل ... يسكن في الطابق السابع ... ماذا تريد منه ؟

- في الغالب سيكون ميتاً أو مقتولاً في شقته.

اتسعت عيناه قائلاً:

- هه كيف عرفت هل أنت.....

قاطعته وأنا أغادر الغرفة:

- سأقول لك كل شيء دعنا نصعد الى شقته الآن.

حكيت له بكلمات سريعة عن الأحلام التي أراها ... لم يصدق حرفاً، برغم إصراري، دققنا الباب عدة مرات قبل أن يخرج لنا الرجل سليماً معافى.

كان هو بلا شك ... الوشم المميز وملامح الوجه التي لم أنسها بعد.

- هل أنت بخير؟؟

نظر لنا الرجل بدهشة، ثم قال:

- الحقيقة، أنني بخير زيادة عن اللزوم ... شكراً
على مشاعركم الملتهبة ... لم أعرف أن إدارة
المبنى أصبحت تقدم خدمة الاطمئنان على
الزبائن وإيقاظهم في الصباح الباكر ...

اعتذرنا له بإحراج، كان لي النصيب الأكبر منه،
وخصوصاً بعد أن انهال علي المشرف باللوم
والتقريع:

- هل تظن نفسك يا هذا في فيلم خيالي بئس
مثلك يا عقل الضفدع ... سيملاً الأحمق الآخر
الدنيا بما جرى، وسأصبح أضحوكة أمام
سكان المبنى.

غمغمت ببضع كلمات اعتذار، تركني بعدها غاضباً
وعاد لغرفته ... شعرت بمقدار هائل من الغيظ
والحنق ... سأفتح في المرة الأخرى جميع الأدراج،
ولنرى ماذا سيحدث عندها لهذا المغرور الذي تهمة
سمعته أكثر من أرواح الناس...

السؤال الهام هنا، هو التالي ... لماذا لم يمت الرجل مع
أني رأيته ميتاً في المشرحة؟

هل حدث شيء ما غيّر مصيره ... أم أنني مخطئ على
طول الخط، ولا دخل لكوابيسي بما جرى لتلك الفتاة
الخليجية!؟

شعرت بصداع أليم من كل هذه الانفعالات، فرجعت
عائداً إلى شقتي ... سيكون الانهماك في العمل الحل
الوحيد للنسيان.

ارتفعت طرقات الباب عند الساعة الثامنة مساءً... كنت أجلس أمام النافذة، أتأمل الكون الصغير الذي تطل عليه ... قمت بتثاقل ونظرت من خلال عين الباب فرأيت المشرف يقف متجهماً ... شعرت بالدهشة ... لم نكن أصدقاء لدرجة أن يطرق بابي من دون سابق إنذار ... يبدو أن كارثة ما قد حدثت.

أشرت له بصمت، أدعوه للدخول:

- لقد عثرنا عليه جثة هامدة منذ ساعتين.

كان هذا أول ما قاله... بعد أن جلسنا في الصالة

- من تقصد؟؟

نظر لي بضيق قائلاً:

- صاحبنا الصيني إياه ... كان مرمياً في قعر درج الطوارئ، ولولا الصدفة لظل هناك أياماً قبل أن تقوم الروائح الكريهة بعملها.

- هل قتل، أم مات بحادث ما.

هز رأسه بتوتر:

- لا نعلم على وجه التحديد ... المشكلة أن شكل الجثة يوحي بكلا الاحتمالين ... سننتظر تقرير الطبيب الشرعي ... لسوء الحظ نحن لسنا في فيلم بوليسي ليصبح جاهزاً بعد عدة دقائق ...

- ولكن الأمر بسيط ... نظرة واحدة على كاميرات المراقبة وستكتشف ما حدث بالتفصيل.

نظر لي بابتسامة ثقيلة، وقال:

- ليس بهذه البساطة ... هذا مبنى سكني
وليس فرع مخبرات ... لن تجد كاميرا مراقبة
بكل زاوية ... لم أر سوى خروجه من شقته،
ونزوله في المصعد ثم خروجه منه ... بعدها لم
يعد يظهر في أي كاميرا أخرى.

ثم سكت، وعاد متابعاً كلامه:

- لحسن حظك هناك كاميرا مثبتة بالقرب من
باب شقتك ... حجة غيابك قوية حقاً.

نظرت له بحدة، وسألته:

- ماذا! ؟ هل أنا مشتبه به ... بأي منطق تقول
هذا الكلام!؟

سكت قليلاً، ثم انتفخت أوداجه، وقال وهو يلوح
بذراعيه:

- تسألني عن المنطق!! قل لي أنت بأي منطق
تأتي لي في الصباح، وتخبرني بأن هناك شخص
ميت في شقته ثم يموت نفس ذلك الرجل
بنفس اليوم ... رجل سليم كالكمال كان
يسخر من سؤالنا عنه، يقبع الآن جثة غبية في
مشرحة المشفى ... ثم بعدها تسألني عن
المنطق!!

قلت له بحزم:

- لقد قلت لك الحقيقة بكل دقة ... أنا أحلم بكوابيس
أرى نفسي فيها أرتجف من البرد في مشرحة مغلقة
الباب، الذي لا يفتح إلا بعد أن أجذب أحد الأدراج،
وأتعرف على الجثة الموجودة داخلها، والتي تكون أحد
ساكني المبنى ... ذلك الساكن التعيس الذي لا يطلع
عليه بعدها نهار آخر وهو على قيد الحياة.

- دعني أفترض أن هذا ما حدث فعلاً ... ماذا أفعل الآن! ؟ ... لو أخبرت الشرطة بما تدّعي، سيضعونني بكل هدوء مع زملائي في عنبر محبي الخوارق ... لو سكت، سأحظى بشرف أن أعرف مسبقاً بموعد موت الساكنين هنا ... هذا شرف عظيم حقاً ... ليتك لم تخبرني بشيء ... لم لا تحلم بأرقام أوراق اليانصيب الراحبة، كما يفعل باقي البشر؟

لم أتمالك نفسي من الضحك، قائلاً:

- يبدو أن لديّ مشكلة في الإعدادات ... سأبحث عن قلم وأضعه في إذني اليمنى لكي أعيد نفسي لضبط المصنع وأرتاح ... أعدك بأن أكف عن إخبارك بأحلامي بعد الآن.

لوح بيده اليمنى، قائلاً:

- لا بالعكس ... أنت مطالب بأن تخبرني عن أي
حلم تراه وبالتفصيل ... قد نستطيع إنقاذ
التعيس القادم.

عقدت حاجبي، قائلاً:

- برأيك هل سيكون هناك أحلام أخرى !؟

ضحك هائلاً، قائلاً:

- لا يبدو لي أنك ستكف عن فعل ذلك ...
سأذهب الآن، وآمل من كل قلبي أن تر
نفسك مسجى في الدرج هذه المرة، لننتهي
من هذا الجنون.

ابتسمت بخبث، وقلت:

- من يدري؟ قد تكون أنت التالي ... لا تنس أنك
من ساكني المبنى أيضاً.

رجفت شفتاه قليلاً، ثم نظر لي بغضب قبل أن يغادر
الشقة.

ظللت جالساً على الأريكة، وأنا أرى غيوماً سوداء
تحتشد أمامي منذرة بالويل ... ماذا أفعل الآن ... هل
أبقى ساهراً طوال الليل وأنام في الصباح؟! يبدو هذا
الحل مغريباً، ولكن من قال أنّ الأحلام لا تأتي في
الصباح؟! هل نومي وحيداً هو السبب؟! يبدو هذا
احتمالاً أحماً ... لا أدري لماذا أشعر أن هناك تفسير
منطقي لتلك الأحلام ... هل الحل يا ترى هو داخل
الحلم نفسه؟ كالألعاب الألغاز التي أعبها أحياناً على
الحاسوب... الباب لا يفتح سوى برؤية الجثة، فهل
هناك خيار آخر يوقف الأحلام بالمرّة؟ هل الأمر

متعلق بأرقام الأدراج؟ هل هناك رقم معين يجب فتحه حتى يتوقف كل هذا؟ لو كان هذا صحيحاً فقد يموت نصف سكان المبنى قبل أن أكتشف الرقم المطلوب ... ما هذه الورطة العبثية التي وجدت نفسي فيها ... هذا الرعب الذي أشعر به وأنا أقف يائساً وحيداً، يفقدني البرد الإحساس بأطرافي وبالحياة نفسها، ولا خيار لي سوى جذب درج ما، وتأمل الضحية الجديدة ... حياة مقابل حياتي ... هل هذا عادل؟؟ هل عليّ أن أقف هناك حتى الموت لينتهي كل شيء؟

لأكن صريحاً مع نفسي ... لست مستعداً للموت من أجل حياة شخص لا أعرفه أصلاً ... لا أملك حس التضحية بهذا الشكل الخرافي، علاوة على أنني لست متأكداً من النتيجة ... شعرت بالضيق من كل هذا،

فجلست أمام الحاسوب، وفتحت أحد التصميمات، وبدأت في وضع بعض التعديلات النهائية التي طلبها العميل ... وتكفل الشرود، وعدم التركيز، بإضاعة ساعتين من المحاولة بدون جدوى، فأغلقت الملف والحاسوب كله ... خائف من النوم رغم حتميته ... أعددت بعض الشاي وجلست أمام التلفاز ... سيكون مشاهدة فيلم ما وسيلة فعالة للنسيان، والتركيز على مشاكل تخص شخصيات أخرى.

على أي لم أكن أعلم أنني لن أصل لنهاية الفيلم إلا عندما وجدت نفسي ... مرة أخرى ... في المشرحة.

هذا هو الملل بعينه ... الأحلام المتكررة المليئة بالصقيع والجثث ... كانت الرؤيا واضحة أكثر هذه المرة ... أخذت أتأمل تفاصيل الغرفة بسرعة، قبل أن يهاجمني الشعور بالبرد مرة أخرى ... ذلك الشعور

الذي لم آلفه في مكان آخر ... وكأن هناك من يدفئك
تحت أطنان من الثلج ... بقيت محتفظاً بإرادتي على
غير العادة في مثل تلك الكوابيس، لذلك لم أصرخ
ولم أدق الباب... لمحت شيئاً معلقاً على الطرف الآخر
من طاولة التشريح ... اقتربت بفضول ومددت يدي
والتقطته ... كان معطفاً قديماً حال لونه ... هل كان
موجوداً من قبل ولم ألاحظه؟! ارتديته من دون تردد
... كان مليئاً ببقع داكنة ... هل هي بقع دماء؟! هل
تخص المشرّح؟! أم إحدى تلك الجثث؟! هل كان على
جسد ميت قبل تلفعي به!؟

شعرت بقشعريرة قوية من هذا الاحتمال ... نحن
نكره أن نتعامل مع أي شيء يخص الموتى، وكأن
الموت مرض معد... ولكن هذا البرد الممرض يجبرني
على تناسي تلك الحقيقة ... ابتعدت من المنضدة،

وغصت داخل الغرفة أكثر ... الأدرج المرقمة
المتتابعة التي تبدو أنها لن تنتهي ... تذكرت تساؤلاتي
عن علاقة الأرقام بما يجري ... هل هي تعبر عن أعوام
!؟... سنوات حياتي!! عام 84 ... ذلك الزحام على
أبواب المخابز، والناس لا تكف عن الصياح
والمشاجرة ... 87 يعود خالي من العدم بعد أن كان
بعداد الموتى، هيكل عظمي مريض لا يكف عن
الصراخ والضحك والبكاء ... 90 الراديو لا يهدأ ليلاً
ونهاراً ووالدي يجلس بجانبه، ينفث الدخان في قلق
ويعقد حاجبيه على وقع أخبار الحرب المتتابعة ... ثم
... لم أر الرقم 94!!

هل هو الرقم المطلوب ... لكن كيف أفتح درجاً لرقم
غير موجود!؟ ... 95 عام وفات أمي، رحمها الله ... 98
صوت الطائرة أصاب المارة بالرعب من احتمال

القصف لدرجة أنهم كفوا عن الحركة ... 99 دخولي
للجامعة ... أرقام وذكريات لإنسان عادي، وأحداث لا
تهم سواه، ولا رابط بينها وبين أشخاص لا يعرفهم ...
كانت الأدراج قد انتهت، على حين استقر بنهاية
الغرفة مكتب خشبي صغير؟! منطق الكوابيس هذا!!
... كيف يصمد مكتب خشبي في هذا البرد؟! ومن
يستطيع الجلوس والعمل هنا أساساً؟ تفحصت
محتوياته بحذر... هناك ورقة سميكة مثبت عليها
صفين من الصور ... الأول، يحوي صور لأشخاص من
أعمار مختلفة، يتسمون بثقة أمام الكاميرا... الثاني،
كان لنفس الأشخاص مغمضي العينين ببشرة داكنة
... لقد كانوا موتى وقت التقاطها ... في أسفل الورقة
هناك صورتان للفتاة الخليجية، بعدها صورتان للكهل
الصيني... بعدها هناك مكان خال في الأسفل

لمجموعتين من الصور، قبل أن تنتهي الورقة بصورة
في المنتصف لشاب أشقر نحيل يبتسم بوحشية ...
شعرت بأنها أشبه بتوقيع إقرار بأنه مسؤول عن
موتهم ... في تلك اللحظة سمعت صوت خطوات
تقترب بثقة ... هل يكون القادم هو الشاب الأشقر؟!
شعرت بالرعب وتلفت حولي ورأيت درج موتى
مختلف ... كان بلون أحمر وموضوع عليه الرقم 94
المفقود ... هل هو الدرج الذي سينهي كل شيء؟؟
... كانت الخطوات تقترب عندما اتخذت قرارى...

جذبت الدرج، ورفعت الغطاء عن الجثة ... ولم أعرف
كم كنت أحمقاً إلا في وقت متأخر.

كنت جالساً في بيت عم صلاح، وأنا لا أكف عن
الارتجاف بينما جلس ثلاثتهم، وقد أخذوا يحدجونني
بنظرات صامتة ... كانت الساعة تقترب من السابعة

صباحاً، وقد انتشر ضوء الشمس الطازج بأنحاء
الغرفة ... تنحنح عم صلاح، ثم قال بحيرة:

- لا أدري ما أقول ... بصراحة ما قلته لنا هو
جنون كامل المواصفات، ولولا تأكيدات
المشرف، لظننت بك الظنون ... أنا لم أسمع
عن شيء مشابه سوى في القصص الخيالية
... معذرة، ولكن القصة كلها صعبة التصديق.

قلت وأنا أكاد أنتحب:

- ولكن هذا ما يحدث حقاً ... أنا لم أصب
بالجنون بعد، ولكن يبدو أنني في طريقي
لذلك، لو حدث لها أي مكروه ... أنا لا أكذب يا
عم صلاح.

طقطق طارق أصابعه مرتين، قبل أن يقول:

- لم يتهمك أحد بالكذب، ولكن من الممكن أنك تخيلت القصة كلها بعد حصول اختلال في الزمن لديك ... تسمع الخبر أولاً ثم تتخيل أنك رأيته في أحلامك ... ضغوط الحياة تفعل ذلك وأكثر.

- وكيف تفسر إخباري للمشرف بموت الرجل الصيني قبل أن يموت بساعات! ؟

تبادل طارق مع المشرف بعض النظرات، ثم قال:

- قد يكون الرجل الصيني الذي مات غير الرجل الذي تحدثتم إليه صباح ذلك اليوم ... المبنى مليء بالآسيويين، ونحن لا نميز ملامحهم بسهولة، والخطأ هنا وارد بشدة.

نظرت له بغیظ، قائلاً:

- هل تريد أن ننتظر لكي تموت حتى تتأكد من كلامي.

صمت الجميع مرة أخرى، ثم قال المشرف:

- أرى أن نقوم بزيارة سريعة لها، ونطلب منها عدم مغادرة المنزل مطلقاً ... سنذهب كلنا، لأن شخص واحد لا يكفي لهذه المهمة ... سيطرد وسيتهم بالجنون وقد يطلبون له الشرطة ... من الصعب فعل ذلك مع أربعة حمقى مع وافر احترامي وتوقيري للجميع.

- دعونا لا نضيع الوقت إذن.

غادرنا منزل عم صلاح متجهين لمنزلها، بينما كان عقلي يستعيد ذلك المشهد الذي جمّد الدم في عروقي ... ذلك الدرج الأحمر ذو الرقم 94 الذي جذبته على

وقع الأقدام التي تقترب مني بثقة ... فتح الدرج ببطء
كالعادة، وكان به جثة مغطاة بقماش رمادي اللون ...
مددت يدي وكشفت القماش بسرعة...

كانت هي ... ليلى مسجاة داخل الدرج ... وميتة..

غير مصدق لما يجري، مشيت معهم مقتربين من
بيت ليلى ... منذ ثلاثة أيام، كانت الحياة تسير بشكل
رتيب رائع الجمال، والآن، أنا ذاهب للفتاة التي أحبها،
أنا وجمع من الرجال، ليس لكي أطلب يدها بل
لأخبرها أنه في الغالب لن تر صباح غد ... هل هناك
بؤس أكثر من هذا البؤس ... وقفنا أمام باب شقتها لا
نقوى على فعل أي شيء ... كرسل الموت الكالحين
نتبادل نظرات حائرة... بقينا هكذا لدقائق حتى أنهى
المشرف الموقف بأن مد يده ودق الباب بعصبية

بضع مرات، مرت حوالي الدقيقة قبل أن نسمع
صوت نسائي حذريسأل عن الطارق...

- أنا المشرف يا آنسة، ومعني السيد صلاح
وطارق ورحمي ... نحن هنا من أجل موضوع
مهم.

ساد الصمت لثوان، ثم فتح الباب وظهرت ليلى في
ثياب النوم تنظر لنا بدهشة وتساؤل، ووراءها امرأة
عجوز تستند على عكازة تنظر لنا بدهشة مماثلة ...
عاد المشرف ليقول:

- آسف جداً على الإزعاج في هذا الوقت المبكر،
ولكن لولا أننا على يقين بأن الموضوع مهم،
لما أتينا ... هل تسمحون لنا بالدخول ؟

هزت ليلى رأسها، ثم قالت باقتضاب:

- تفضلوا.

تبعناها حتى الصلاة وجلسنا صامتين... ترمقنا ليلى
وأما بنظرات فضول وترقب ... تأملت بنظرات
سريعة المكان... نظيف ومرتب وأثاثه جميل... وبرغم
صعوبة الموقف، كنت أشعر بفرح طفولي بداخلي ...
تلك كانت أول مرة أسمع فيها صوتها.

تنحى عم صلاح، ثم قال بهدوء:

- لا أعرف من أين أبدأ ... ما ستسمعونه الآن يتجاوز
أي منطق، وقد تظنون بنا الظنون، وأعذرکم لو فعلتم
... ولكن حتى عندما يتجاوز الإحساس بالخطر أي
مسلمات نعرفها، فإن الحذر واجب... وقص عليهم ما
جرى ثم أنهى حديثه قائلاً:

- ما نطلبه منك هو بسيط ... فقط لا تخرجي من بيتك اليوم، ولا تبقي وحيدة... مهما حدث ... نحن لا نعرف ما الذي نواجه حقاً، ولكنه من النوع الذي يتسبب بكوابيس تكشف عن موت سيحدث في المستقبل القريب جداً، لذلك لن ندع أي احتمال مهما بدا مضحكاً وغير طبيعي.

كان عم صلاح قد انتهى من كلامه، عندما تبادلت ليلي وأمها نظرات الاستغراب ثم التفتت لنا قائلة:

- سأتجاهل حقيقة أن ما سمعته يصلح كسيناريو فيلم رعب أكثر من كونه قد يحدث في الواقع ... ولكنني لا أستطيع البقاء في المنزل اليوم ... أنا أعمل في دار أزياء شهيرة ولها نظام صارم، واليوم بالذات هناك طلبية لحفل زفاف كبير ... لو جلست في المنزل

سأخسر عملي وستتوقف الحياة بالنسبة لنا
... عندها لن يكون هناك فارق لو عشت الغد
من عدمه و...

قاطعتها الأم بصوت مرتجف:

- وماذا لو كان ما يقولونه صحيحاً... لن يتحمل
هؤلاء السادة عناء الحرج واحتمال معاملتهم
بقلة قيمة، لو لم يكونوا متأكدين مما قاله عم
صلاح.

قالت ليلى باحتجاج:

- أنت تعرفين كم تعبت حتى وجدت هذا
العمل، وكم تحسنت أوضاعنا بعده... لن
أخاطر باحتمال فقدته من أجل افتراضات غير
قابلة للتصديق.

قلت بصوت خافت:

- حتى لو تناسينا الكوابيس التي رأيتها، يبقى
أن الناس ترى أحياناً أحلاماً تعطي إشارات
لاحتمال موت شخص ما، يموت بعدها فعلاً،
صدقيني لو رأيت ما رأيته وسمعت نتائجه
بعدها ستتفهمين لم أتينا لننصحك بالبقاء
بمنزلك اليوم ...

هو يوم واحد لا أكثر.

- وما أدراك أنه يوم واحد ... قد أموت غداً أو
بعد غد بأسباب لا دخل لكوابيسك بها ... لن
أبقى اليوم في المنزل، وهذا قراري وأرجو أن
تحترموه.

كان هذا هو جرس النهاية ... وقفنا بتثاقل وغادرنا
المكان تحت إلحاح الأم أن نبقي لواجب الضيافة على
الأقل.

- في المرة القادمة سيدتي، إن شاء الله.

عندما أغلق الباب، قال عم صلاح:

- هذه معركة خاسرة من البداية ... كنت آمل
فقط أن تسايرونا على الأقل ... فتاة عنيدة.

تمتم طارق، وهو يعبث ... كعاداته ... بلحيته:

- هذا مثال صارخ عن إصرار بطل الفيلم على
مصيره الأسود رغم كل التحذيرات.

قلت لهم بجمود:

- لن أتركها بهذه البساطة.

قال المشرف بتساؤل:

- لن تتركها ماذا !!؟ لو منعته من أي شيء
سأضعك بيدي هذه في السجن ... هذا قرارها
فلا تضع نفسك بمشاكل يعاقب عليها
القانون ... هي حرة أيها الفتى الشرقي ولا
سلطة لك عليها.

نفخت في ضيق قائلاً:

- وكأني أريد خطفها أو إجبارها على الزواج
المبكر ... هذه الفتاة مهددة بالموت، وكل هذا
بسببي أنا، فهل تريد مني التفرج عليها وهي
تموت !!؟

سألني عم صلاح بدهشة:

- ما الذي تستطيع فعله أساساً ؟

- أن أمتنع أي مكروه من الاقتراب منها مهما كلف الأمر.

هز المشرف كتفيه في حيرة، قائلاً:

- ولم كل هذا العناء يا أحمق! ؟

- لأنني أحبها أيها الرجل الغربي... ونحن الشرقيين لا نترك من نحبهم يموتون هكذا ببساطة ... ننقذهم أو نموت معهم ... ومهما كان الثمن ندفعه بكامل الرضا. وتركتهم وأسرعت إلى غرفتي.

كنت أعلم ما سأفعله بالضبط ... لبست ثياب الخروج ووضعت عصا كهربائية في حقيبتني وحملتها على كتفي ... لن أدعها تبتعد عن أنظاري أبداً ... نزلت بسرعة، وجلست في حديقة المبنى على مقعد بجوار الباب الخارجي أنتظرها بصبر ... رأيته قادمة

فاستدرت وأخفيت وجهي ثم تبعتها بحذر حتى
وصلنا لمحطة المترو ... لن تلاحظ وجودي وسط هذا
الزحام... عندما جاء المترو، صعدت معها بنفس
العربة ووقفت بالقرب منها ... تأملت الركاب من
حولي ... لم أر وجوهاً مريبة.

بعد نحو ساعة، وصل المترو إلى محطة رئيسية،
ورأيتها تستعد للنزول فاقتربت من الباب خوفاً من
أن تراني، عندها رأيت ذلك الوجه المحملق الذي
يقترب ببطء وإصرار منها ... حاولت الاقتراب بسرعة،
ولكن مع كل هذا الزحام كان هذا الأمر شبه مستحيل
... شعرت بالرعب فخطفت مظلة من يد شخص ما
وقذفتها باتجاهه، كانت ضربة موفقة أصابت وجهه
بقوة ... أخذ يشتم وأخرج سكيناً، وأخذ يلوح بها في
جنون، ولم أنتظر بقية المشهد، فركضت مع

الراكضين وخرجت من المترو ... لا فرصة له في الهرب
وسيقبض عليه رجال الشرطة حتماً ... تلفت حولي
بسرعة ... كانت ليلى قد اختفت ... غادرت محطة
المترو بسرعة ووقفت عند المدخل، أخرجت هاتفي
وفتحت تطبيق الخرائط، وبحثت عن مكان عملها ...
لم يكن بعيداً عن المحطة ... بعد عدة دقائق كنت
أقف أمام دار الأزياء ... حاولت الدخول، فأوقفتني
موظفة الاستقبال قائلة بلطف صارم: أنه ممنوع
دخول غير النساء ... وقفت متردداً، فحدجني موظف
الأمن الجالس بجانبها بنظرة حادة ... هزرت كتفي
باستسلام وخرجت ... لن يجرؤ أحد ما على الدخول
هنا عنوة، وهذا ما جعلني أطمئن قليلاً ... تلفت حولي
بحيرة باحثاً عن مكان ما أستطيع فيه مراقبة مدخل
الدار من دون لفت انتباه أحد... كانت هناك مقهى في

زاوية الشارع ... هذا أكثر من كاف ... جلست هناك
أتأمل الغادين والرائحين في صبر ...

أخذ الوقت يمضي ببطء شديد كالعادة، لذلك
وضعت سماعة في أذني وبدأت أستمع وأفكر بهذا
الموقف الغريب ... جالساً على كرسي في مقهى
محاولاً منع أذى مجهول من المساس بمن أحبها
...هل الفاعل يا ترى هو ذلك المهاجم في عربة
المترو؟! لو كان هو، فلا بد أن الشرطة أمسكته،
وانتهينا من كل هذا الجنون ... هل هو أحد سكان
المبنى؟ لماذا أنا بالتحديد من يرى تلك الكوابيس
الباردة المبشرة بالموت؟! هل تنجو ليلى يا ترى أم أن
الأمر محتوم؟

شعرت بانقباض في قلبي فشربت رشفة طويلة من
فنجان الشاي وأغمضت عيني قليلاً ... لن أسامح

نفسي لو حدث لها مكروه... برغم كل شيء كنت
أشعر بمسؤولية عما يحدث وكأن كوابيسي هي من
تقتل ... لن أستبعد أي احتمال ما دمت غائصاً في
المجهول ... مضت الساعات بطيئة، وبدأ الظلام
بالتسلل ... كنت مرهقاً بشدة من التركيز والتفكير
وانفعالاته، وانتهت كل مراوغاتي مع الزمن.

وكان الظلام قد حلّ تماماً عندما خرجت ليلى من دار
الأزياء... رأيتها تأخذ نفساً طويلاً ثم تتابع المشي
بسرعة.

انتبهت حواسي كلها، فدفعت الحساب وخرجت
لأتبعها كمراهق يخشى فقدان أثر حبيبته في الزحام،
فتضيع عليه فرصة لقائها مرة أخرى ... كانت هذه أول
مرة أملك فيها كل هذا الوقت لملء روعي من
تفاصيلها ... أنيقة، مرهقة ومرهقة العيون الناضرة إلى

أفق بعيد... ومع خشيتي من أن تراني، فلم أمنع نفسي من الاقتراب منها كال مسحور كل حين...

كنا واقفين داخل المترو السائر برتابة عندما رأته ... نظرت إليّ بدهشة، ولم أدر ما أفعل، فابتسمت وهزرت رأسي محيياً... هزت رأسها بدورها قبل أن تلتفت مبتعدة بابتسامة سريعة...

وبعد قليل، غادرنا المترو فراداً، ومشيت خلفها بمسافة معقولة.

لقد أوشك اليوم على الانتهاء، سأتبعها حتى باب شقتها ... هناك سأنتظر حتى منتصف الليل، وأطمئن أن اليوم حقاً قد انتهى، وبعدها سأذهب بكل قوة وتصميم إلى النوم.

وصلنا إلى الشارع الذي تحف الأشجار طرفيه، والذي
ينتهي بمدخل المبنى ... دق جرس هاتفي فالتقطته،
وهدأت من سرعتي قليلاً لأرى من المتصل ... كان
رقماً مجهولاً ... ضغطت على زر الإجابة ... وسألت عن
المتصل ... لم أسمع سوى صوت تنفس عالي ...
كررت السؤال دون جدوى، فأنهيت الاتصال بغضب
... سمعت صوتاً غريباً، فرفعت رأسي ورأيت شبحاً
أسود يغلق فم ليلى ويسحبها الى وراء شجرة هناك.
ركضت كالمجنون وألقيت بنفسي عليه ... سقط
ثلاثتنا على الأرض ... لكمته على وجهه فترك ليلى،
وهجم نحوي ككلب مسعور ... أين رأيت هذا الوجه
الأشقر البارد؟! كنت في معركة مفرداتها الغضب
والخوف، وكانت مفرداته هو أن لا محرمات ... من
سيقتل الآخر أولاً ... ومن بين الدماء والكدمات التي

ملأتني وغشاوة بصري، سمعت صوت طلق ناري ...
هل هو من أطلقه؟! شعرت بألم عنيف في رأسي،
وساد بعدها ظلام رحيم...

عندما فتحت عيني، كان هناك أكوام من الأعين
تحقق بي بفضول... شعرت بالضييق إزاء ذلك ...
دعوني وشأني فحسب... سمعت صوتاً يأتي من
عينين بلحية صغيرة، قائلاً:

- ها قد أفاق بطلنا المصاب...سلامتك يا
وحش.

سمعت همهمات بلغات مختلفة، أغمضت عيني
لبضع دقائق، ثم فتحتهم وتأملت المكان من حولي
... كنت في المشفى المركزي على سرير في إحدى
الغرف الزجاجية إياه ... في واحدة غير بعيدة عن غرفة

أبو زياد ... مر بخاطري سريعاً حكايته مع ماريّا ... قلت
بصوت متحشرج:

- هل ليلى بخير ؟

أجابني عم صلاح:

- هي بخير أيها العاشق ... لا داعي للقلق ... هي
من أنقذتك... ركضت نحو حارس باب المبنى
الخارجي وسحبته لخارج المبنى ... عندما رأى
المشهد الدامي، أخرج مسدسه وأطلق طلقة
في الهواء ... هرب بعدها ذلك السافل لتمسكه
دورية شرطة كانت بقرب المبنى.

سكت عم صلاح، وتبادل النظرات مع المشرف الذي
قال:

- كان يومك حافلاً حقاً يا مثير المتاعب ... انظر

ماذا سجلت كاميرا المترو اليوم ... لقد بث هذا

المشهد في نشرة الأخبار الرئيسية اليوم.

ووضع شاشة هاتفه أمام عيني ... كان مشهد اقتراب

معتدي المترو من ليلى، وقذفي له بالمظلة.

تابع المشرف كلامه قائلاً:

- لقد أصبحت مشهوراً يا فتى ... الصحافة خارج

المشفى الآن، وهم يودون رؤية ذلك الفارس

العربي المغوار، قاذف الرمح.

ربت طارق على كتفي:

- أنت بخير ... فقط بضع كدمات وجروح في

أماكن متفرقة من جسمك ... ستظل تحت

الملاحظة حتى صباح الغد ... نم ولا ترهق

نفسك ... سأكون عندك في الصباح إن شاء
الله.

غادروا بعدها، هم وضوء الغرفة بهدوء.

الظلام الرحيم، وتلك الأصوات الرتيبة التي تصدر من
غرف المشافي ليلاً ... شعرت برغبة في سماع أغنية
هادئة ما ... ولكنهم لا يعرفون محمد منير هنا ... في
طفولتي كانت أغنية الليلة يا سمرة، تبث مرات
عديدة في الراديو في الليل خصوصاً... كنت أرقص على
أنغامها ممسكاً بيدي رباط حذاء طويل بدلاً من
مسبحة أو منديل ... ما أقسى أن تكون وحيداً في
المشفى ... آلام تبدأ وتهمد ... كنت أعتبر المرض
مناسبة للسكون والاستمتاع بلذة التعب الذي تعقبه
راحة ... أن تتوقف عن أي شيء سوى المعاناة، وترك
العنان لكي يكون جسدك حراً خارج رغباتك وتلك

الأعباء التي تملؤه بها دائماً ... شعرت أن جسدي
يغوص داخل السرير ...

أغمضت عينيّ بقوة وفتحتهما بعدها، فرأيت نفسي
في المشرحة... أقف أمام طاولة المكتب... كانت الورقة
إياها مازالت موضوعة عليها ... التقطتها ونظرت إلى
نهايتها إلى تلك الفراغات التي اختفت قبل أن تملأ،
وبقيت صورة ذلك الشاب ذو الملامح القاسية الذي
تعاركت معه أسفل الورقة ... لم يعد الطقس بارداً ...
نظرت خلفي ... كانت أدراج الموتى قد اختفت، وامتلاً
المكان بالأرفف المزدحمة بالكتب ... سرت متجهاً
للباب وسمعت صوت أمي تسألني: ماذا تريد أن
تأكل اليوم ... التفت ورأيتها تقف بجانبى مرتديه
كعادتها ثياب الصلاة البيضاء ... كان أبي جالساً في
زاوية الغرفة على سجادة صغيرة يدخن ساهماً،

والراديو ملتصقة به، تقول له ما يجري وما لا يجري
في الدنيا ... كان باب المشرحة مفتوحاً... خرجت منه
الى الممر الطويل المزدحم بالغرف الزجاجة الصغيرة
... مشيت عبره، وأنا أتأمل المرضى المستلقين على
الأسرة ... أنا أعرف ذلك المستلقي هناك ... إنه أنا
... لأجلس معه قليلاً فهو يشعر بالوحدة.

فجأة، امتلأت الغرفة بضوء أبهر عينيّ ... فتحتهما
فرايت ليلى تضع باقة ورد بجانبى، وتبتسم وتقول
لي:

- شكراً لك.

ابتسمت وأغمضت عينيّ في رضا ... شعور مريح
غممني ... مستلقياً على بحر هادئ أزرق، رائقته
منعشة، والموج يداعبني بتكاسل، وهناك من

يناديني من بعيد...تقف هناك على الشاطئ بقبعة
زرقاء، تلوح لي بكلتا يديها ... تقفز في الهواء فتتراقص
ملامحها العذبة على ضوء الشمس البهيج ... نسمات
عطرها وصوت ضحكاتها، والموج يأخذني بعيداً عنها
... أستدير لأغادر البحر فلا أقوى ... أخاف أن تمضي
وتتركني وحيداً في بحر لا معنى له من دونها...

أئن وأفتح عيني، فيقول لي طارق:

- استيقظت أخيراً، كيف حالك اليوم؟؟

التفت إلى الطاولة التي بجانبني، ورأيت باقة ورد تتلألأ
هناك.

في المساء، غادرت المشفى وعدت إلى غرفتي ... كنت
أشعر ببعض التحسن جسدياً ... كان وجهي متورماً

قليلاً مع أوجاع مجهولة تطفو أحياناً، عداك عن
الشعور بالصدمة الذي يحتاج لكي يزول بضعة أيام.
لم أكن أملك ترف البقاء أكثر هناك، فلدي عمل لا بد
أن ينجز، وأميال لأقطعها، كما تقول الأغنية الإنجليزية
القديمة ...

كانت ليلي ما تزال بخير، وهذا يعني مع المنام الذي
رأيت، أن الأمور أصبحت بخير ... التحقيقات مع
الشاب الأشقر كشفت أنه ينتمي لجماعة عنصرية
متطرفة من تلك الجماعات التي أصبحت موضة هنا
هذه الأيام ... كان يسكن في المبنى على أنه طالب
جامعي ... أزعجته هذه الكمية من الغرباء الأشرار،
فأراد إخافتنا لنرحل ... كالعادة سيختفي هذا الخبر
من المحطات سريعاً، وستعود الأمور لما يفترض أن

تكون على طبيعتها ... بقي سؤال متعلق في ذهني ...
لماذا رأيت أنا بالذات كوابيس المشرحة إياها!؟

على أن الجواب أتاني سريعاً ... أتاني بهيئة دقائق
متتابة على باب الشقة ... نظرت من خلال عين
الباب ثم فتحت الباب بسرعة ... كان الرجل فارح
الطول ذو ملامح الفأر يقف هناك، وهو ينظر لي
كعاداته بلا أدنى انفعال ... الرجل الذي قابلته في
الطابق الحادي عشر عندما رأيت الكاتب أول مرة ...
للدقة، عندما رأيت بعضاً منه ... سألته بتوجس:

- ماذا تريد!؟

لم يبدر منه أي حركة تدل أنه قد سمع سؤالي ... ثم
قال بصوت عميق:

- يريدك...

ثم استدار وسار نحو المصعد ... أخذت المفاتيح
ولحقت به ... كانت هيئته مربعة فعلاً ومثيرة
للتساؤل ... من هو أساساً؟! ... وما هي علاقته
بالكاتب ... هل هو مجرد خادم له؟

لو كان هكذا فعلاً، فهو أشبه بخادم لأحد أشرار
السينما، وليس لكاتب يقضي وقته في الكتابة ... بعد
أن دخلت إلى المصعد مد يده وضغط زر الطابق
الحادي عشر.

عندما فتح باب المصعد تعمدت أن أسير ببطء ...
كنت أتأمل الممر الأزرق الطويل بتمعن ... أنيق
ومضاء بشكل احترافي، وتتوزع اللوحات على جوانبه
بتتابع جميل ... هناك لوحة تمثل شخصاً نائماً على
سرير معدني، وقد جلست ثلاثة نسوة بمعالم وجه
غير واضحة فوق قدميه يتجاذبن الحديث ... صورة

أخرى تمثل شخصين يجلسان في غرفة مظلمة، ينظر أحدهما إلى الآخر بتوجس وخوف ...

لماذا يقتني هذا النمط الغامض والمخيف من اللوحات؟! التفت نحو نهاية الممر ... كان الرجل الفأر مولياً ظهره لباب المكتب يتأملني في جمود ... مشيت متمهلاً في تحدٍ، حتى وصلت إليه... استدار وفتح الباب ... وقفت متردداً ثم دخلت ... سمعت بعدها صوت إغلاق الباب.

كانت الغرفة رحبة أكثر مما ظننت، المكتبة التي تحتل جداراً كاملاً، والنافذة الممتدة على طول الحائط، والمكتب الذي يحوي حاسوباً بشاشة ضخمة وأريكة ضخمة زرقاء ... تلفت حولي ولم أجد أثراً لأي أحد ... أين هو إذن!! اقتربت من النافذة ونظرت من خلالها ... رأيت من بعيد عدة مباني عالية،

تحيط بها غابة صغيرة ... على الطرف الآخر شارع
واسع بعيد تمضي به العربات جيئة وذهاباً ... هناك
تفاصيل أخرى غارقة في الظلام لم أتبينها ... كل هذا
جميل، ولكن المشكلة، أنه لا وجود لهذا المشهد حول
المبنى، ولا في أي جزء آخر من المدينة!!! سمعت
صوت نحنة خفيفة، وشاهدت باباً صغيراً وراء
المكتب يفتح ويدخل منه الكاتب بهدوء.

تأملته بفضول ... في منتصف الأربعينات من عمره
كما أظن... متجهم الوجه الذي بدا لي غير مألوف ...
يرتدي ثياباً منزلية أنيقة ... وقف في منتصف الغرفة
يبادلني النظرات ببرود، ثم أشار لي قائلاً:

- لنجلس على الأريكة.

جلسنا صامتين لفترة، شعرت بالضيق فسألته:

- ثم ماذا ؟

رفع حاجبيه قائلاً:

- ماذا تقصد ؟

- هل تجد ما يجري الآن طبيعياً ؟ ترسل لي ذلك الرجل الفأر لأنك تريدني؟! هل هذا أسلوب تعامل بين الكاتب وشخصياته!!؟ هل من المفترض أساساً أن أراك أو أجلس معك؟

نظر لي بجمود ...كان يحاول إخفاء توتره الظاهر من اهتزاز ركبته اليمنى ... سألني فجأة:

- لماذا فعلت ذلك! ؟

- ما الذي فعلته بالضبط! ؟

- تدخلك في الأحداث، وإنقاذك لليلى.

قلبت يدي في حيرة، قائلاً:

- وهل كنت تريدني أن أجلس منتظراً خبر موتها! ؟
- ولكنك تصرفت بشكل يخالف طبيعة شخصيتك ... تعقبك لها كالملاك الحارس، وقذفك للمظلة، وعراكك مع القاتل ... كل هذه الأفعال لا تتماشى أبداً مع تركيبتك.

اعتدلت في حنق، قائلاً:

- وما هي تركيبة شخصيتي التي تمنعني من حماية الفتاة التي أحبها!؟

قال مشيراً إليّ بسبابته:

- أنت شخص انطوائي تكره الزحام، وتقضي أغلب وقتك وحيداً... هواياتك واهتماماتك

كلها تعكس ذلك ... وحتى عندما تذهب
لصالون صلاح الموسيقى، فإنك تفعل ذلك
لأنك تحب سماع ما يعزف هناك، وليس
لتجتمع بالناس ... وبعد ذلك...

واحمر وجهه قائلاً:

- بعد ذلك تقوم بتلك التصرفات، وكأنك أحد
أبطال أفلام الحركة... كان من المفترض أن
تسير الأحداث بشكل مختلف تماماً... كان
يجب أن تموت ليلي، وتدخل أنت في اكتئاب
عميق، وتودع بعدها في مصحة نفسية،
وتتخيل نفسك وقتها أنك مازلت في المبنى،
وتقع أحداث تتوزع بين ما تتخيله وبين
وجودك الفعلي في المصحة.

كان يتحدث، وأنا أرمقه بنظرة ساخرة، فقال بحنق:

- كف عن هذه النظرات وتصرف بجدية.

- تريدني أن أتصرف بجدية بعد أن سمعت منك هذا الكلام! ؟ حاضر، سأتصرف بجدية ... إنك يا عزيزي تؤلف رواية، وكل ما هو مطلوب منك، لو كنت موهوباً حقاً، أن تراقب ما يجري وتسجله بأسلوبك ... ليس من المفترض أن تتدخل بهذا الشكل في الأحداث، وإلا ستعرضها للفشل أو على الأقل ستخرج باهتة ومفتعلة ... أنت متفاجئ من ردة فعلي بعد أن أدركت أن ليلى في خطر، وأنا أرى أن ما فعلته طبيعي جداً، ولا يتناقض مع شخصيتي ... لقد وضعتني أمام تحدٍ كبير أمام نفسي، ولم أكن لأسمح، مهما كان الثمن، أن تموت ليلى، بينما أقبع في غرفتي يقتلني ألف سؤال عما ستعرض له ... لقد افترضت أن

مسار الرواية يجب أن يمر بإصابتني بالذهان وذهابي
للمصحة ... واضح أنك لم تدرس شخصيتي جيداً،
وهذا ذنبك أنت وليس ذنبي.

اكفهرّ وجهه أكثر، وأخذ كلامه يقترب من الصياح:

- هذا كلام فارغ ... هذه روايتي وأنا من أقرر
كيف ستجري أحداثها وليس أنت ... عموماً
سأقوم ببعض التعديلات، وستسير الأمور
كما خططت لها و...

قاطعته بصرامة قائلاً:

-أي أنك في النهاية مصرّ على جعلني أدخل للمصحة
!؟

-نعم ... هذا ما سيحصل بالضبط ... موت ليلى هو
العقدة الأساسية في الرواية، وكل شيء بعدها

سيكون مرتبطاً بذلك ... أي احتمال آخر سيوصلني
لطريق مسدود.

- ألم أقل لك أن تكف عن التدخل وتراقب وتكتب
فقط ... لن تصل لطريق مسدود صدقني.

كرر كلامه قائلاً:

- ستموت ليلي في الأحداث القادمة.

قلت له بتصميم:

- لن تستطيع فعل أي شيء.

نظر لي بحذر

- ماذا تقصد! ؟

- أنا الشخصية الأساسية في روايتك، وأنا من يحرك الأحداث... ببساطة، سأكف عن فعل أي شيء، ولن تستطيع إجباري على شيء.

- مجرد كلام فارغ ... ستقوم بما أريده بالضبط.

وقف، وقلت له بتحدٍ:

- جَرِّب، وسترى أنك ستقضي النهار كله تدور حول نفسك بجنون، ولن تكتب أي كلمة.

واتجهت نحو باب المكتب متابعاً كلامي:

- لا تحاول إرسال ذو وجه الفأر ثانية ... لن آتي معه ... وعندما تكف عن التدخل في حياتي عندها ستسير الأمور كما السابق.

- حياتك!! أنت مجرد شخصية وهمية ابتدعتها أنا ...
هل تظن نفسك كائناً من لحم ودم.

هزرت كتفي بلا مبالاة، قائلاً:

- لا تهمني هذه النظرة المتعالية أبداً ... أنت لم
توجدني من العدم بل من بعض ما تعلمته
وخبرته في دنياك ... أنا الآخر أمتلك حياة ودنيا،
فلا تتعامل معي كدكتاتور يظن نفسه مالكاً
لمن يحكمهم من البشر، لأنه يتخيل أن
مصائرهم بيديه ... مصيري ليس بيدك أبداً،
وسأصرف كما أريد أنا وليس كما تريد أنت...
وامنعني إن استطعت.

أخذ يراقبني في جمود بينما كنت أفتح باب الغرفة ...
كان الرجل الفأر واقفاً ساداً الطريق ... التفت للكاتب،
وقلت له بحدة:

- قله له أن يدعني أرحل ... لا يليق بك تصرفات
رجال العصابات تلك.

أشار له باستسلام، فابتعد جانباً، بينما ينظر لي بتلك
الطريقة اللزجة...

اللوحات الغربية المتناثرة في أرجاء الممر ... المصعد
وزر الطابق التاسع ... دخلت للشقة، ووقفت أمام
النافذة أتأمل السيارات العابرة وأفكر بعمق بما جرى
... كانت هناك جملة واحدة تملأ نفسي:

ليكن ما يكن، ولكن ستسير حياتي كما أريد مهما كان
الثمن.

ألوان من العبث

عندما استيقظت في ذلك الصباح، كنت قد قررت أن أفعل شيئاً واحداً فقط، وهو ألا أفعل أي شيء على الإطلاق ... كانت ذكرى اللقاء العاصف أمس بيني وبين الكاتب مازالت تسيطر على تفكيري ... كان شعوري نحو ذلك مزيج من الدهشة والغضب ... كنت أحسبه أكثر حكمة من هذا الذي سمعته منه... يظن نفسه في لعبة شطرنج محسوبة الخطوات بدقة، وكأنه لا يعرف أن نجاح أي كاتب مرتبط بمدى جموح خياله... هناك كتّاب كثر غيروا نهايات رواياتهم بشكل جذري ... ستيفن كينغ فعلها في روايته بؤس، حيث كانت المسودة الأولى تحمل موت بطل الرواية، وقرر

بعدها أن يجعله يعيش ... هكذا تتغير مسارات أي رواية، بل وتتغير مسارات الحياة نفسها على نفس المنوال ... كل قرار له نهاية مختلفة ... والكاتب مصرّ على خط معين، لم ولن يتحقق قط ... لقد أنقذت ليلى فعلاً، وسيكون أحماً لو حاول قتلها مرة أخرى ... سأريه بالدليل العملي، أنه لا يستطيع إجباري على شيء وأن خياله أقوى منه ... سيصاب بسدة الكاتب اليوم، وهذا سيلقنه درساً لا بأس به...

خرجت من الفراش وجلست على الأريكة في سكون ...

أخذ الوقت يمر ببطء ... كان المبنى غارقاً في صمت مطبق على غير العادة ... لا بد أن تسمع بين الحين والآخر صوت خطوات في الممر أو شخص ما يتحدث بالهاتف ... أصوات الجيران ... ولكن هذا الصمت

الثقيل يجعلني أتسائل حقاً عن الذي كان يفترض أن يجري ولم يجر بعد...

سيكون عليّ تحمل أطنان من الملل ولا مفر من ذلك، على أن الكرة الآن في ملعب الكاتب، والاستسلام السريع سيكون حلاً مريحاً للجميع.

كيف سأؤكد أنه فهم الدرس؟

هذا سابق لأوانه...لأستمر بفعل لا شيء وأرى...

دق جرس الباب فجأة، لم أرد وتظاهرت بعدم سماعي له، عاد الجرس ليدق متصاحباً بدقات متتابة على الباب، ثم سمعت صوت طارق يقول بمرح:

-افتح يا رحمي، أنا أعرف أنك بالداخل ... أريد أن أطمئن عليك وأخبرك بما تقول الصحافة عنك.

لا إجابة...

عاد ليدق عدة مرات، ثم ساد الصمت فجأة...

بعد حوالي الساعة دق جرس الباب...

تجاهلته تماماً، فعاد ليدق بإلحاح، وسمعت صوت
عم صلاح يقول بصوت مبحوح:

- رحمي! هل أنت هنا... أنا أتنفس بالكاد... يبدو
أنها جلطة... خذني إلى المشفى أرجوك.

تسارعت دقات قلبي وهممت بفتح الباب، ثم
خطرت لي حقيقة معينة، فقلت له بهدوء:

- معذرة يا عم صلاح... أنت تسكن في الطابق الثالث
وأنا في التاسع، ولا يعقل أن تصعد لي حتى أنقذك...

بكل بساطة كنت ستطلب الإسعاف ... أنت لست عم
صلاح أساساً فلا داعي لهذه الألاعيب.

- أنا أموت يا رحمي ...

- إذن لا تضع الوقت واطلب الإسعاف.

لم يرد، وساد بعدها الصمت مرة أخرى.

شعرت بأن ما أفعله قاسياً حقاً ... ولكن معنى أن
أقوم بأي شيء الآن، هو ترك الكاتب يعبث كما يريد،
وهذا سيتبعه موت ليلي، وذهابي فيما بعد إلى
المصحة ... يبدو أن الكاتب لا يريد الاستسلام بسرعة،
وهذا يعني يوماً مليئاً بالمتاعب...

أغمضت عينيّ وحاولت إشغال تفكيري بأشياء
أخرى ... عندما فتحت عينيّ كان الظلام قد ساد ...

هل نمت من دون أن أشعر... نظرت لساعتي ... كانت
تشير للثانية عشر ظهراً ... من أين أتى هذا الظلام!

ألقيت نظرة من خلال النافذة ... كان المشهد غارقاً في
الظلام فعلاً ... الشارع خال ولا أثر لأي سيارة ... المباني
البعيدة هي الأخرى مظلمة ... هل رحل الجميع
وبقيت أنا!!

شغلت الحاسوب لأرى ما هنالك، فبدأً بشاشة
الفحص المعتادة ثم توقف ليخبرني أن لا قرص
تخزين هناك!! ... هنا بدأت أفهم ما يجري.

واضح أنه لم يستسلم بعد ... فليكن ... سأتركه
يمضي في ألامه، وسأقضي بقية اليوم في القراءة ...
وقفت أمام المكتبة وانتقيت كتاباً ... فتحته
واكتشفت أن أوراقه بيضاء ... سيكون تكرار التجربة

أمرأً عقيماً...عدت وجلست على الكنبه متظاهراً
باللامبالاة، على أني كنت أغلي من الداخل ... عاد الباب
ليدق باستمرار وببطء ثم توقف فجأة ... سادت ثوان
من الصمت، ثم انطلقت موسيقا بإيقاعات مرعبة
من أمام باب الشقة لتملأ المكان ... اقتربت بحذر،
ونظرت من خلال عين الباب... كان أعضاء صالون عم
صلاح بما فيهم هو نفسه واقفين بجمود أمام الشقة
بالضبط، ممسكين بآلات موسيقية ويعزفون وكأنهم
مجموعة من الموتى، بوجوههم البيضاء وبحركاتهم
الميكانيكية... موسيقى رهيبة قادمة من أعماق
الجحيم ... فجأة دخل الرجل الفأر على كادر المشهد
سائراً ببطء وثقة ... وقف أمام العازفين ناظراً لباب
الشقة بسخرية ... شعرت أنه ينظر لي بشكل مباشر

... فجأة اقترب بسرعة وانحنى ... سمعت صوته
العميق قادماً من ثقب المفتاح:

لا تحزن يا حبيب فؤادي
فلست أنا من اختار ما حصل
أحببتك وأحببتني

وكان سواد الليل الحزين
يدارينا ... سكارى بين كلمات

الحب وهمسات الشجر
قائلة بأني لك وأنت لي

سمعتها كل الدنيا

إلا أبي وأباك

وكانت كلمة لا

ولم يعد لنا سوى الهرب

سائرين

خائفين

يهرب منا مفزوعاً الطريق

تحلق من حولنا

الشياطين

أخي وأخوك الماجنين

يا لسخرية القدر

عن الدفن ومن بعده الموت

يتكلمون

علينا أغلقت المقبرة

صياح وبكاء

وروائح متعفنة

وجوع مفترس

لا تحزن يا حبيب فؤادي

أنسيت أنك همست لي

بأن عمرك وروحك لي

أنا أريدك أنت

لحمك الطري الجميل

حزينة أنا

لأنك لم تعد تملك شفتين

ولا وجنتين

ستعيش فيّ

يا حبيب فؤادي

إن امتلكت أنا

احتمالا ما

بأن أعيش.

ساد صمت رهيب بعدها ... لم أعد أستطيع مقاومة
شعوري بالاشمئزاز، فركضت مسرعاً الى الحمام
وأفرغت معدتي بقوة ...

عندما عدت الى الصالة، كان أمامي هذا المشهد ... لم يعد هناك ذلك الشارع من بعيد والموجودات التي حوله ... كان مبنى ضخم قبيح، يحتل المشهد بأكمله بنوافذ سوداء مغلقة ... التصقت بالزجاج، وتلفت فرأيت ذلك المبنى يمتد من دون نهاية...هل يحيط بالمبنى الذي أسكن فيه ... شعرت بالاختناق، والتصقت أكثر بالزجاج ...أضيئت في تلك اللحظة أحد الغرف في ذلك المبنى ... مقاعد كثيرة، ورجل يجلس ساهماً على أحدها ... بدا لي مألوفاً ... التفت لي، والتقت عينانا ... ثم بدأ بالضحك ... كان خالي، رحمه الله.

انطفأ ضوء الغرفة واشتعل بعدها ضوء آخر ... كنت أقف أمام سرير أُمي عاجزاً عن فعل شيء سوى البكاء بصمت أمام ما هو محتوم أن يحصل ... ذهب

الضوء وجاء آخر... والذي يجلس في إحدى زوايا صالة
بيتنا يستمع الى الراديو... يتنفس بعسر ويشعر بفتح
علبة الدواء... يكتشف أنها فارغة... ينظر لي بذعر،
وهو يمد يده الممسكة بالدواء باتجاهي، ثم يتهاوى
مغلقاً عينيه...

تراجعت وأغلقت ستائر النافذة، وأنا أرتجف... يريد
أن يدفعني للجنون أو الخروج من الشقة... سيكون
الخيار الأول ممتازاً له أكثر... سأذهب الى المصحة،
وسيكمل بعدها الأحداث كما يريدّها هو... أغلقت
عينيّ صارخاً:

- هذا يكفي... لم أعد أحتمل.

أخذت أنشج بخفوت...

شعرت بشيء ما يحدث من حولي ... فتحت عينيّ
ببطء ... كان ضوء الصباح يدخل من النافذة،
والسيارات تسير بهدوء ... شغلت الحاسوب فبدأ
بالإقلاع دون مشاكل ... عندما أمسكت بأحد الكتب،
كان كعادته مليئاً بالكلمات.

في المساء، وبعد أن لملت قليلاً شتات نفسي،
سمعت دقات على باب الشقة ... عندما فتحت
الباب، كان الكاتب يقف هناك وهو ينظر لي بعينين
واسعتين.

- هل استوعبت الدرس! ؟

سألني وهو يجلس مداعباً شاربه ... شاردأً في المشهد
أمامي الذي خلا من ذلك المبنى القبيح، تمتمت
بخفوت:

- ما فعلته بي ليس عادلاً بالمرّة ... أنا لا أصدق
أنك كاتب حتى.

قال مشيراً لي:

- أنت من بدأ ذلك أولاً ... تريد أن تصيبني بسدة
الكاتب وفشلت... أردت فقط أن أذكرك بأنني
أنا المتحكم بكل شيء هنا... أرجو أن تكون قد
فهمت هذه الحقيقة.

نظرت له بزاوية عيني لثوان، ثم قلت:

- ماذا تريد الآن؟ ولماذا أتيت الى هنا ما دمت
المتحكم بكل شيء كما تقول؟ دع الأحداث
تمضي كما تريد وحسب.

ابتسم الكاتب قائلاً:

- لقد طلبت مني ألا أرسل لك الرجل الفأر مرة أخرى ... صحيح هل أعجبتك القصيدة؟؟
هذه إحدى محاولاتي الشعرية... لم يكن إلقاؤه لها سيئاً ... أتيت لأقول لك أنك تفكر بطريقة خاطئة تماماً ... أنت تعاملني كأنني عدوك، وأنا لست عدوك صدقني ... لست مطالباً بكتابة قصص لها نهاية سعيدة حتى أكون رجلاً طيباً ... بالعكس تماماً، هناك كثيرون ممن سيعتبرونني كاتباً جيداً؛ لأن نهايات قصصي مأساوية ... هناك من القراء من يطلب ذلك بشدة ... الحزن المرهف الجميل بعد نهايات من هذا القبيل ... هذه لذة خاصة، يعرفها كل قارئ مخضرم...

ثم اعتدل، وتابع كلامه:

- صدقني، أنا أحبك لأنك على الأقل من بنات
أفكاري ... طبعاً، مع تحفظي على تلك العبارة
كونك ذكر ... ولكي أثبت لك ذلك قررت تغيير
النهاية ... لن أدعك تعاني في المصحة، ولن أدع
ليلى تموت ... ولكن هذا لن يحدث من دون
ثمن.

التفت له بتساؤل، فسكت قليلاً ثم تابع:

- سيكون الثمن أنت.

كررت بدهشة:

- أنا !!؟

هز برأسه قائلاً:

- نعم أنت ... ستكون النهاية هي موتك ... لم أقرر حتى الآن كيفية ذلك، وحتى لو قررت، فلن أخبرك.

- لماذا تريدني أن أموت.

- كما قلت لك ... أنا أبحث عن نهاية مأساوية ... البطل الذي يملك أحلاماً وطموحات وفتاة يحبها ويريدها له، ولم يستطع تحقيق ذلك قط.

قلت بصوت مبحوح:

- يوماً ما ستموت أنت، وسيكون هناك خياران بالنسبة لك ... إما إلى الجنة أو إلى النار ... سيحاسبك الله، وسيقرر بعدها مصيرك بعدالة ... فماذا تستطيع أن تقدم لي أنت !!؟

- لم أفهم ما ترمي إليه.

- عندما أموت أنا فلن يكون أمامي سوى العدم، وأنا لا أريد هذا المصير.

لوح الكاتب بيده، وقال بتبرم:

- كف عن التفكير بمنطق أنك كائن حي ... أنت فكرة كبرت حتى أصبحت إحدى شخصياتي القصصية ... هل تحسب أنني سأكتبك للأبد؟! ... سأكف عن كتابتك عاجلاً أو آجلاً، وهذا سيعني، بمقياس الإنسان المكون من لحم ودم، توقفك عن الحياة.

- على الأقل سأكون توقفت عن الحياة بشكل طبيعي، وليس فجأة وبهذه السرعة ... إنك تتسرع بشكل غريب في إنهاء كل شيء... إننا لم نكد نبدأ حتى ... أعطني وأعط كل هذه الشخصيات التي من حولي والتي ستموت بموتي فرصة كافية... إنك كمن

يريد أكل الطعام نيئاً لمجرد أنه يشعر بالجوع... ما
تنوي فعله خاطئ تماماً وستندم عليه بعدها.

ساد صمت طويل بعدها، وبدا على الكاتب التفكير
ثم نهض فجأة وقال:

- كلامك معقول إلى حد ما ... ولكن لن أستطيع
أن أعدك بأي شيء ... سأفكر في الأمر، وأرى
بعدها ما سأفعله.

وغادر بعدها الشقة، تاركاً لي أن أسبح في كلماته
السوداء ... أجرب مشاعر المحكوم عليه بالإعدام ...
بل لأجرب ما هو أسوء ... مشاعر البريء المحكوم
عليه بالإعدام من غير سبب مفهوم ... سيكمل قصته
متسبباً بموتي وانتهاء كل شيء ... أغاني الصباح مع
كأس الشاي الساخن ... صالون عم صلاح... طارق

بضحكاته وكلماته الساخرة ... السير في الطرقات ليلاً...
ليلى العزيزة وقصة الحب التي هي وردة عائرة الحظ
أزهرت في بداية الشتاء حيث لا أمل قط.

لن أقرأ أي كتاب آخر بعد اليوم...

شعرت بهم ثقيل مرعب يملأ كل خلايا جسمي
ويعتصرها بلا رحمة فتنزف دموعاً ... الضباب يحيط
بعقلي ويجعله عاجزاً عن أي شيء ... ساد الظلام
فجأة، وعندما فتحت عيني وجدت نفسي ... من
جديد ... في المشرحة.

كانت المنضدة تقف كعادتها في منتصف القاعة ...
كانت أدراج الموتى قد اختفت، ووضعت في مكانها
مكومة جثث الموتى الكفنة.

الباب المغلق والبرد الشديد ... أسرعت إلى مكان
الطاولة ولم أجدها ... كان هناك درج موت واحد
موضوع مكانها ... البرد يشتد ولا خيار سوى جذبه ...
بداخلها كالمعتاد جثة مغطاة بالقماش الأبيض،
رفعت الغطاء ونظرت إليها...

كانت جثتي ترقد بهدوء في الداخل.

أخذت حماماً ساخناً، وارتديت بعدها أفضل ما عندي
... جلست أمام النافذة أرتشف الشاي، وأتأمل
المشهد السابح أمامي الذي غالباً لن أراه مرة أخرى
...

لن أخبر أحداً بما رأيت وبما سيجري ... سيملؤون
الدنيا ضجيجاً، وسيغلقون عليّ الأبواب، وأنا أريد يوماً
طبيعياً بشدة... يوم أعيشه بطوله وعرضه.

علاوة على أنني أريد أن يكون الموت بشروطي أنا،
وليس بشروط الكاتب، لذلك لن أجلس في غرفتي
وأنتظر.. سأخرج وأودع كل الأماكن التي ألفتها.

ستكون مجاملة لطيفة لو ترك لي اليوم الأخير كاملاً،
وأنتهى كل شيء في الليل ... لن أقول لأحد أي شيء
... سأودعهم بهدوء وأمضي...

كنت قد قررت أمراً ... اعتراف صغير أمامها ... عبارات
قليلة قد تعوضني عن كل ما خبأته لها من مشاعر
وكلمات لأيام لن تأتي قط.

وقفت أمام باب شقة ليلى ودققت الباب بتصميم،
كانت واقفة عند عتبة الباب تنظر لي بدهشة
وتساؤل...

قلت لها بهدوء:

- أريد أن أشكرك أولاً على باقة الورد ... كان
لطيفاً منك زيارتي في المشفى.

ابتسمت قائلة:

- العفو ... هذا أقل ما يمكن فعله ... لقد شغلْتُ
وقتكَ طوال ذلك اليوم، وتعرضت للخطر
بسببي.

تابعت كلامي قائلاً:

- كان هذا خيارى، ولو عاد الزمن للوراء لفعلت ما فعلته وأكثر... لا أتصور أبداً أن يأتي يوم لا أراك فيه ولو من مسافة ما ... لقد رضيت بتلك المسافة لمجرد احتمال أن ترحلي أو أكون بالنسبة لك رجل عابث بلا أخلاق ... اليوم لم يعد هناك حاجة لأي مسافة ... إن هي إلا بضع كلمات سأقولها ثم أرحل ولن أزعجك بعدها أبداً... أنا أحبك يا ليلى ... أحبك أكثر مما يستطيع تحمله أي قلب، وأكثر من أن تحتضنه أي مشاعر ... وجودك جعل حياتي منعشة كنسمات يوم ماطر ... جعلها دافئة هائلة ... هذا جزء صغير من السعادة رضيت به ما دامت الشمس تشرق في قلبي كل يوم، وتدغدغني الأفكار بحقيقة أنك هنا، أرنو إليك

من بعيد وتسبح روعي باتساع عينيك
الحبيبتين ... عزائي الوحيد أن الكثيرين قد
قضوا حياتهم كلها من دون وجودك، وحسبوا
أنهم عاشوا سعداء ... وكنت أنا المحظوظ
الوحيد بينهم ... لن أزعجك أكثر، وأتمنى لك
حياة بجمالك.

استدرت ومضيت ... سرت خطوات قليلة ثم التفت
مرة أخرى... بنظرة داهشة وحزينة كانت لا تزال تقف
أمام عتبة الباب ... غابت بعدها وسمعت صوت
إغلاقه ... تابعت سيري بعد أن أخذت نفساً عميقاً
بارتياح ... خشيت أن أتردد وأحجم عما فعلت ...
سيكون عليّ فعل أشياء كثيرة كنوع من الوداع...
أشياء أتمنى أن يتسع لها يوم واحد.

خرجت من باب المبنى الداخلي وغمرتني أشعة
الشمس ... مشيت خطوات قليلة ثم استدرت
وأخذت أتأمله ... ذكريات كثيرة حدثت لي هنا ...
أحداث باسمه وأخرى حزينة ... ذكريات مرت أمامي
بسرعة وبدويّ صامت.

هبت في تلك اللحظة نسمات منعشة ملأت بها
صدري بجشع.

استدرت مرة أخرى وتابعت سيري...

تمت



ذلك الظلام الأبنوسي الجميل الذي
يذكرك بتلك الأشهر التي قضيتها في
رحم والدتك حيث الدفء والهدوء
والطعام الذي لا ينفذ ... الظلام الذي
خرجت منه مرغماً ... والذي تعود إليه
أحياناً عندما تطفئ الأنوار وتغرق في
سرابله الرحيمة على أعصابك كما أنا في
هذه اللحظات

من أمام النافذة أتأمل الموجودات
البعيدة في هدوء ... سواء تلك
الموجودة أمام شبكية عيني أم تلك
التي ورائها ... الذكريات التي تراسمت
بحيث لا تكاد ترى لها نهاية بطريقة
غطت أي إمكانية لرؤية البداية ... ولكن
أي بداية تريد؟؟ ... وهل تدري أين تلك
البداية !!؟

إسمي هو رحمي فواد ... هل شعرت أنه
مفتعل؟؟ هو كذلك فعلاً ... أنا
شخصية قصصية ومن أبسط حقوقي
أن يكون لي إسم جذاب ملفت للنظر

